شظايا من عمري

سيرة ذاتية

عنوان الكتاب : شظايا من عمري (سيرة ذاتية)

المؤلف : عبد المعين الملوحي

اختيار : مالك صقور

تقديم : شاهر أحمد نصر

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/99/ آب

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail **riv@net.syecun**
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

عبد المعين الملوحي

شظايا من عمري

سيرة ذاتية

اختيار : مالك صقور

تقديم : شاهر أحمد نصر

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (99)

شظايا من عمري

شاهر أحمد نصر

أصدر الأديب والشاعر عبد المعين الملوحي (1917 ــ 2006) مذكراته في كتاب من جزأين عنوانه: "شظايا من عمري"؛ يقع الجزء الأول في 368 صفحة ويتناول هذا الجزء سيرة حياته وأعماله وتطوره العاطفي والفكري منذ طفولته حتى بلوغه الستين من عمره. وقد صدر هذا الجزء عن دار الكنوز الأدبية في بيروت عام 1995، أما الجزء الثاني الذي يمتد منذ إحالته إلى التقاعد نهاية عام 1976 وحتى عام 2003، ويقع 274 صفحة، فقد صدر عن دار الملوحي للنشر والتوزيع بدمشق عام 2004...

***

ـ صفات الملوحي وأخلاقه السامية التي تميز إنساناً من أخلص الناس لوطنه وشعبه والإنسانية، نبراسه التواضع، والصدق، وكره الظلم، والدفاع عن الحق...

ـ المستوى الرفيع لأدبه ولغته وأخلاقه: عرف أنه بحر عميق ذاخر للآلئ اللغة العربية والمعارف الإنسانية. تذكرنا أخلاقه النبيلة وموسوعية علمه بأبي العلاء المعري. بقي وفياً للثقافة الرفيعة بعيداً عن الرياء والنفاق، سامياً في حبه لوطنه، لم يكتب لينال رضا الآخرين وإعجابهم، بل كتب لينفع بني قومه، ويفيد وطنه خاصة والإنسانية عامة، لم يبع قلمه في زمن "خيانة الثقافة"... إنه من الكتاب والشعراء القلائل الذين بلغوا مرتبة هامة في الإبداع، ولم يتعالوا على الناس البسطاء، بل بقي وسطهم يعرفهم بحالتهم وما ينقصهم وإلى ما عليهم أن يصبوا إليه...

ـ تعريف القارئ إلى أدب، وفكر، وملامح شعره الذي يقع في أكثر من 700 صفحة أغلبها لم ينشر بعد، والتي تناول في أغلبها رثاءه لزوجته "بهيرة" وابنته "ورود" ورثاء نفسه، ورثاء أصدقائه وكثيرين من المناضلين الثوريين، والأدباء والمفكرين، مما يجعله جديراً بلقب أمير شعراء

الرثاء بلا منازع، فضلاً عن أن شعره وأدبه الغني باللوحات والأفكار الرفيعة في الحب والجمال، والتوق إلى الحرية، ومحبة الأرض والشعب والوطن، يؤرخ بموضوعية وفنية عالية لمرحلة تاريخية هامة من نضال شعبنا ضد التخلف والاحتلال والاستعمار، وتخلد ذكرى المناضلين الحقيقيين المجهولين في هذه الأمة المنبثقين من أعماق المجتمع، لعل التعريف بأعماله الشعرية يحفز من يتبناها ويخرجها إلى النور لترفد المكتبة العربية بمادة أدبية رفيعة.

ـ تعريف القارئ إلى جوانب من سيرة الملوحي التي تعكس تاريخ مجتمعنا في مرحلة هامة من مراحل تطوره بعيد الاستقلال، والتعرف إلى آرائه في مختلف جوانب الحياة، وحصاد السنين، وخلاصة خبرته في الحياة، التي تضج بالأحداث المليئة بالحكم والعبر، التي تعرفنا إلى رجال "غير مشهورين كثيراً، ولكنهم هم ملح الأرض. يفهمون العدل والحق ويحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يحققوهما في نطاق أعمالهم"، وتعرفنا إلى كيفية معالجة المجتمع للكثير من أمراض التخلف كالطائفية والموقف من المرأة، وخاصة في أثناء التعامل مع التراث، ومع مستجدات الحياة،

الـتي تظهـر تقـدم أسـاليب تعامـل المجتمـع في أربعينيـات وخمسينيات القرن العشرين على الكثير من أساليب البعض في بداية الألفية الثالثة، وهذه مسألة وظاهرة تحتاج إلى مقاربة موضوعية والتمعن العميق علها تفيدنا في إيجاد الحلول للمسائل المشابهة التي لم تجد حلاً بعد...

ويأتي نشر هذا الكتاب تكريماً للإبداع الذي لم ولن ينضب في بلادنا الحبيبة سوريا، ومحاولة لتبيان أن أدب وفكر المبدعين الذي يتناول هموم الناس، ويتعامل موضوعياً مع الوعي الاجتماعي لنقد الفكر والممارسة المتخلفة فيه، وتجاوزها لنشر وعي متحضر يصون حرية الإنسان، وكرامته؛ أدب لا يموت، بل حي في ضمائر الناس في أحلك اللحظات، وهو الملاذ الأمين والبوصلة الأمينة لتلمس سبل الخلاص من الأمراض التي تعيق بقاء المجتمع وتقدمه.

نأمل أن يجد القراء، في هذا الكتاب، المتعة والفائدة التي كرس الملوحي حياته خدمة لها.

طرطوس 21/ 7/ 2015

تقديم

لو سألوني يوم حشري: ماذا فعلت؟

لقلت لهم في صدق:

﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾ [1]

عبد المعين

[1] سورة الحاقة ـ الآية 19.

الإهداء

لم أخدع شعبي

لم أبع قلمي

لم أمدح الطغاة

فإلى

كل من لم يخدع شعبه

وإلى كل من لم يسرق شعبه

وإلى كل من لم يبع قلمه

وإلى كل من لم يمدح الطغاة

أهدي مذكراتي هذه

دمشق 1 **كانون الثاني** 1976

لماذا ولدت... ولماذا أعيش...

هناك على باب غرفة لا تتجاوز خمسة أذرع في أربعة، في دار كبيرة ذات باحتين، وفي حي يدعى "باب هود"، وفي مدينة تدعى "حمص"، وفي قطر يدعى الشام وقفت أنظر إلى الغرفة، وقد أصبحت شاباً، وقيل لي "هنا ولدتك أمك"، هنا نشقت أنفاس الحياة الأولى.

وأحسست بأنفاسي تتردد في صدري أول مرة، وسمعتني أملأ الغرفة صراخاً وبكاء، ورأيت الجدران تتلون بألف لون، وعدت أدراج الزمن أطوي منه خمسة وثلاثين عاماً، وأبصرتني قطعة من لحم رخص وعظام لينة، ودم متخثر، أوضع في طبق وأغسل بماء، ثم ألف في خرق ويرمي بي في زاوية من زوايا الغرفة، والأم تنام مجهدة، ويطلع عليها وعلى ولدها الصغير النائم صباح يوم الاثنين من تشرين عام 1917.

حاولت أن أنام في غرفتي القديمة، وأخذتني خدر الحياة الجديدة، وردني إلى الواقع قرع الجرس في المدرسة وأصوات الطلاب تعلو ثم تنخفض، والصفوف تتجمع وتتنظم، والجرس يقرع ثانية، وأنا أراقب المعلم المسكين يحرص على سرعة انتظام الصفوف، وعلى الهدوء والصمت أمام المفتش الجديد.

كانت تلك أول مرة أدخل فيها إلى الدار التي شهدت ولادتي، بعد أن باعها أهلي واشتراها معلم لتصبح بعد سنين مدرسة ابتدائية، كان مديرها يعرفني ويعرف أهلي وكان هو الذي دلني على الغرفة التي شهدت ولادتي...

ودخلت الصفوف، وسألت الطلاب مائة سؤال دقيق وأجابني الطلاب مائة جواب صحيح، وبقي في نفسي سؤال واحد، لا يستطيع له الطلاب جواباً ولا أستطيع له رداً، ولا يعرف أحد له تفسيراً: لماذا ولدت...؟ لماذا أعيش..؟

وخرجت من المدرسة كما دخلتها وأنا مثل الناس جميعاً أجهل ويجهلون حتى الغباء ما كان ينبغي أن أعرفه ويعرفوه حتى الأعماق.

لماذا ولدت...؟ لماذا أعيش..؟

لم أشهد الصفقة التي عقدت بين الخالق والخلوق، ولم أحضر كبرياء إبليس حين أبى أن يسجد لآدم، ولم أر أمنا حواء تأكل من ثمرة الخطيئة، ولم أر أبانا آدم يهبط من الجنة، ولم أشهد قتل الأخ أخاه، ولا زواج الأخ أخته، ولم أركب في سفينة نوح حين غرقت الأرض بالطوفان، ولا كنت في برج بابل يوم تبلبلت الألسن، ولا شهدت مواكب الغزو والنهب والسلب، ولا رأيت قوافل العبيد تساق بالسياط وتكبل بالحديد، وتباع في أسواق النخاسة، ولا حضرت الفلاسفة يحرقون بالنار، ولا العلماء يرجمون بالحجارة، ولم يسمع تجار الحروب لي رأياً عندما كانوا يقرون الحروب فتقتل الملايين وتشرد الملايين وتجعل الملايين أيامى وأيتاماً، لم أشهد شيئاً من هذا كله، ولم أعرف شيئاً من هذا كله، ولم يكن لي رأي في هذا كله، كنت لا أريد أن أرى الفقير يموت جوعاً، والأرملة تبيع عرضها حاجة، والطفل يصيبه السل من الحرمان، والمريض ينزف دمه من الإهمال، والمحتضر تتمزق روحه إرباً إرباً، ولا أن أسمع الأنين يقرع آذان السماء فلا تسمع، ولا سيل الدموع تبلل

أحشاء الأرض فلا تشبع، لم أر ولم أسمع شيئاً من ذلك كله، بل لم أكن من قبل أن أولد، ولا بعد أن ولدت، وما أزال حتى الآن لا أريد أن أرى شيئاً من هذا، ولا أحب أن أسمع شيئاً من هذا، ومع ذلك فقد ولدت وأرغمت أن أجرع حتى الثمالة كأس الحياة... وقد غبرت بي سبع وأربعون سنة، حين بدأت هذا الكتاب، وأنا لا أعرف بعد هذا العمر كله أكثر مما عرفت يوم ولدت... ولعلي عرفت أقل مما عرفت يوم ولدت...

أتراني ولدت فقط لأعرف ما كان من أمر الخالق والمخلوق..؟ ولأعجب بإبليس وكبريائه أو ألعنه على كبريائه؟ ولألوم أمنا على خطيئتها، أو أغفر لها خطاياها؟ ولأشكو أبانا آدم على هبوطه إلى الأرض أو أشكره؟ ولأنكر على أخينا الأول لجريمة قتل أخيه؟ ولأتعجب من أخينا الأول كيف نسي أختنا الأولى فكانت له زوجاً؟ لأتمنى لو لم يصنع نوح سفينته؟ ولأرجو أن يجتمع الناس على لسان واحد في بابل جديدة؟ لأبصق في وجه الغزاة واللصوص؟ لأشد على أيدي العبيد وقد كسرت عنها القيود؟ ولأحمل دلواً من الماء وأطفئ به النار التي أحرقت

الفلاسفة؟ ولأضع ترساً يرد حجراً من الحجارة التي يرمي بها العلماء؟ أتراني ولدت فقط لأقول للفقير ثر قبل أن تموت جوعاً؟ ولأمد يدي إلى الأرملة برغيف قبل أن تبيع عفافها من حاجة؟ وإلى الطفل أمشي به وأطعمه بيدي قبل أن يصيبه السل؟ ولأعطي شيئاً من دمي أعوض به ما نزف من دماء المريض؟ أتراني ولدت لكي أقبل فم المحتضر الأصفر وقد لواه الموت، ولأدق أبواب السماء لتسمع أنين البائسين؟ ولأضرب بقدمي الأرض لكي تنشق ينابيع تكفكف دموع العطاشى... أتراني ولدت من أجل هذا؟ وهل شيء من هذا يستحق أن أولد من أجله...؟ وإذا كان يستحق فما أدري، ألست أنا نفسي واحداً من هؤلاء الناس جميعاً..؟ أحتاج دمعة حنان، لمسة يد ناعمة في لطف، كلمة طيبة من فم عذب، سأحاول إن استطعت، ولن أستطيع... أن أكون في كتابي هذا شيئاً من هذا، دمعة حنان، لمسة لطف، كلمة عطف.

وتظل الغرفة التي شهدت فيها النور شاهدة على ما يمكن أن يصنع الإنسان حين يكون إنساناً لا يعرف لماذا ولد، ويحاول أن يعرف قليلاً لماذا يعيش.. يحاول أن يسوغ وجوده بعد أن وجد، ثم لم يستطع الإفلات من أسر السؤال، ولعل لتلك المحاولة وجهاً آخر، وجاً أكثر إشراقاً.

أتراني ولدت لأعيش في أعماق الحياة سراً من أسرار الحياة؟ من هذا الشيء الخالد المتجدد... من هذا الشيء الذي يصرخ بالربيع فتتفتح ألوف الأزهار... ويصرخ بالأرض فترتج تحت أقدام ألف حيوان، بعضها يزحف زحفاً، وبعض يدب دبيباً وبعض يسبح سباحة، وبعض يتقلب، ويدوي فيها ألف صوت: صرير جندب، عواء كلب في ليل.. نشيش ماء... ثغاء شاة... قوقأة دجاجة تضع بيضة... صياح ديك... ويصرخ بالسماء فتضج بألف طائرة: فراشة ذات ألوان... عندليب يغرد... نسر يعلو حتى تقول يغسل جناحيه في نبع، في نجم، نملة سوداء تدب على الأرض ثم لا تلبث أن ينبت لها جناح فتطير...

أتراني ولدت لأرى هذا كله..؟ وأرى ألف شيء مثله... تصفو نفسك فتجد أنك جزء من هذا الكون الرحب... شعاع شمس، نور قمر... جمرة نار تحمر على وهجها أيدي الأطفال...

أتراني ولدت لأعيش في ضمير الله قبساً من نور الله...

أم تراني ـ والإنسان ذو غرور ـ ولدت لأعيش دودة تسعى في الأرض أياماً، ثم تدفن في التراب إلى الأبد...؟

لست أدري..

أتراني ولدت لأعيش وأحيا بأعمق ما في العيش من معنى وأعمق ما في الحياة من مغزى...؟

أتراني ولدت لأضم إلى صدري صدراً يتدفق أنوثة..؟ لأطبع على ثغر فتاة حبيبة قبلة أولى..؟ لألمس حبلى فأعرف أن في بطنها طفلي...؟ لأسير وأسمع صوتي يتردد مدوياً في أعماق الليل..؟

ما أزال أذكر.

كنت في القاهرة... وكنت أسير وحيداً بعد منتصف الليل، وكان القمر يذوب حناناً فوق صدر الأرض، وعلى صفحة النيل... وكنت أسمع صدى خطواتي ترن فتسمعها الأوراق... والأحجار... والمياه.. وإذا أنا فجأة... أمد يدي ثم أضرب واحدة بواحدة... ثم أصرخ ملء حنجرتي.. ملء قلبي: أنا سعيد.. أنا سعيد.. أنا سعيد.. شعور يكفي أن يغمر قلبك مرة واحدة في حياتك كلها لتنسى بالتالي كل آلام الحياة...

ورآني الحارس وسمعني: وقال: مجنون... وحمدت الله أنه لم يعرف أنني علاوة على ذلك حمصي.

أتراني ولدت لأعبث بشعر بنت من بناتي..؟ لأداعب ولداً من أولادي... وتنتشي الفتاة بيد أبيها فتقول: ما أحلاك يا أبي.. ويضيق الولد بدعابة أبيه فيقول: كفى يا بابا..

أتراني ولدت لألف لون من ألوان الحياة؟.. لأرى الإنسان وهو يبني مستقبله.. وأرى الحضارة وهي تسير دائماً إلى أمام... وأرى الشعوب تستيقظ، وأرى الأحرار ينتصرون وأرى النيل يقال له: قف مكانك: فيقف مذعوراً، ثم يقال له: سر في هذه الطريق الجديدة فيسير ويفعم قلبه سروراً وهو يشاهد ألوف المزارع الجديدة تنبت بالخير والشجر والضرع والزرع والإنسان الجديد السعيد، وألوف الوجوه السمر والأسنان البيض التي كانت تقضم الحقد مع الجوع فصارت تأكل الحب...

أتراني ولدت لأسمع في غابات أفريقيا ضحكات العبيد السود وهم يودعون ساخرين سادتهم القدماء البيض، ويقرعون وراءهم ألف طبل مزقت جلودها حماسة الراقصين..؟

أتراني ولدت لأرى في جنبات الصين ملياري يد صفراء تصنع العالم بعد أن كان يخربه المستعمرون بأكياس الأفيون...

أتراني ولدت لأدخل مع الأنصار في فيتنام قلعة (ديان بيان فو) التي حمتها الطائرات وأحاطت بها الدبابات وقصفت حولها المدافع، ثم هدمت أبراجها قبضات الرجال؟

أتراني ولدت لأرى في الجزائر شعباً عربياً عظيماً يعيد إلينا ثقتنا بأنفسنا، شعباً عربياً يعيش فيه مرة أخرى خالد وأبو عبيدة وخولة وضرار... ويبني على هامات ألف ألف شهيد دولته الجديدة الحرة...؟

أتراني ولدت لأرى كل هذا... وأكثر من هذا...

أتراني ولدت لأرى أمتي العربية وهي تسير كالعمالقة لتبني حياتها على الوحدة التي هي قدرها المحتوم، والحرية التي هي أملها المشرق، والاشتراكية التي هي بناؤها المنيف...

وإذا كنت لذلك ولدت فكيف أقول لماذا ولدت...؟ ولماذا أعيش..؟ وأنا أسمع ألف جواب بألف لسان من ألف لون من ألوان الحياة... تحت الأرض وفوق الأرض وفي جواء السماء وفي بطون البحار فتقول كلها بصوت واحد يدوي:

"الحياة تستحق أن تحياها"

وفجأة ينتصب الموت أمامي شبحاً أسود يكشر عن أنيابه ويقول:

هب أنك ملأت حياتك طولاً وعرضاً: عشت وجربت، وضممت إلى صدرك فتاة، وشممت ريح ولد، وبنيت مجداً، وحققت نصراً، وملأت عينيك بالفجر يطلع، وبالمغيب يتلون، وأذنيك بالبلابل تغرد، وبالشلال يتدفق، وأنفك برائحة التراب غب المطرة الأولى، وبالأزهار تتفتح عند الصباح، ولمست بيديك ثغراً دافئاً تمط شفته السفلى، فتتفرج عن أسنان بيض تلمع ثم تردها فتنطبق على فاغية عنبر، ووضعت أصابعك على خد فتاة وردي ثم رفعتها فابيض الخد ثم عادت إليه حمرة الورد.

هب أنك كنت مع جيش التحرير الجزائري حين دخل حي القصبة، وأعدت بيديك الهلال فوق مئذنة المسجد الكبير، ودخلت في ركاب هوتشي منه ديان بيان فو، واشتركت في تحرير شنغهاي، وحاربت في أدغال الكونغو وأنغولا، وأيدت حقوق العبيد في الولايات المتحدة وأفريقيا الجنوبية، وأعدت القدس إلى العرب، فما قيمة ذلك كله..؟ وأنت ترى بعينيك مصرع فتاتك يقضمها السرطان بأسنانه،

وأنت واقف كالأبله، كالمشلول، كالحجر لا يستطيع رد القضاء. ما قيمة ذلك كله..؟ وأنت ترى ولدك يذبل كالسراج حين ينضب زيته وليس في يديك زيت.

ما قيمة ذلك كله وأنت ترى ملايين العميان لا يبصرون الشمس ولا يعرفون القمر، ولا يدركون النور...؟

ما قيمة ذلك كله وأنت تدفن بيديك أباك وتدلي في القبر بيديك أمك وتلف بالأكفان جسد أخيك...؟

ما قيمة ذلك كله..؟ وأنت ترى بعينيك وميض قنبلة ناكازاكي وهيروشيما، وتسمع بأذنيك فحيح المعذبين في سجون الطغاة. وتلمس بيديك الأيدي المكسورة في التعذيب والقروح التي تنز قيحاً، والجراح التي تفغر أفواهها في طلب الرحمة، ويخاف الأساة لمسها...

ما قيمة ذلك كله..؟ وأنت تشهد شعوباً مستقلة تركع على قدميها أمام المستعمرين، وأمما حرة تسجد في أعتاب المستبدين، وترى شعبك العربي تنقض عليه غربان الانفصال فتسلبه وحدته، وتبصر شراذم قليلة تسد عليه طريقه بدبابات من حديد كانت قطرات من عرقه ودمه...

ما قيمة ذلك كله وأنت تعرف أنك ستموت؟

تغيم عيناك، وتنهد قواك. وتترك كل شيء، وتستل منك روحك، وتدلى وحيداً في قبر أو تلقى في بحر، أو تمزق في سقوط طائرة، أو تحرق في نار، ثم ترى زوجك تتلوى كالثعبان في سرير زوج آخر، وأبناءك يتشردون يتامى في الأزقة، وما جمعت ينهب، وما بنيت يهدم ترى ذلك وتسمعه، وأنت يأكل جسدك الدود، أو تعيث برمادك الرياح...

ما قيمة ذلك كله...؟

كدت أسكت، كدت أكسر القلم، وأقسم لا أمسكت بقلم أبداً... كدت أمضي لأغرق يأسي في كأس... لعل الصمت هو الجواب الوحيد الصحيح...

دعك من كل هذا الحديث الطويل العريض الذي لا معنى له، ولا طائل فيه ولا جدوى منه...

عبث في عبث... باطل الأباطيل.. قبض الريح...

وإذا الجنازة والعروس تلاقيا

ورأيت دمع نوائح يترقرق

سـكت الـذي تبـع العـروس مبهتـاً

ورأيـت مـن تبـع الجنـازة ينطـق

وسـكت... أنـا الـذي أحـاول أن أتبـع موكـب الحيـاة والعروس، ونطق من تبع الجنازة.. جنازة الحياة.

ولكن الجنازة مرت... والموت مضى... وبقيت العروس... وبقي فرح الحياة.. ذهب أفراد وبقي مجتمع، ذهب موتى وجاء أحياء...

وأمسكت بالقلم مرة أخرى وشرعت أكتب... وذكرت قصيدة لي تهاجم الموت والأموات...

في صـميم المـوت ألقـى أثـراً فيـه خلـودي

في فنـائي كبقـائي، وسـهادي كهجـودي

أنـا إن أعـدم فلـن أعـدم إثبـات وجـودي

في بـلاد كـل مـا فيهـا لحـود في لحـود

فلحـود تحـت ظهـر الأرض فاضـت بالصـديد

ولحـود فـوق ظهـر الأرض تمشـي في الحديـد

وذكرت أني في هذه القصيدة كنت لا أبالي إن مت حريقاً أو غريقاً أو على فراشي... ولكن ذلك كان شعراً والشعر ليس رداً عقلياً، ولا جواباً فلسفياً، ولكنه شيء يمكن أن يردد لدغدغة عاطفة، لا تلبث أن تزول، إحساس مخدر، شعور مؤقت، ثم تبقى حقائق الحياة والموت أقوى منه، وأكثر ديمومة وثباتاً.

وذلك صحيح، ومع ذلك فقد تكون الحياة كلها مجموعة من الانطباعات، سلسلة من العواطف، إحساسات متتابعة، مشاعر متنوعة، هي التي تصنع الحياة وتسوغها، ثم لا تكون الحياة ذلك الاتصال الدائم بمشاغلها، بطعامها وشرابها، بالحاجات المادية التي لا تنتهي والتي ليست إلا طريقة لاستمرار الحياة، وليست هي مسوغات لها...

ومع ذلك فقد ولدت، وما أزال أعيش وسوف أموت، تلك أشياء ليس إلى إنكارها من سبيل... وأنا أكتب الآن لأضع خطوطاً لهذه الحياة التي عشت... لأجد نفسي في كتاب... لأقرأ ما خفق به قلبي ودمدم في دمي، وتردد في عقلي في صفحات.

أحب أن أزعم ما زعمه من قبل روسو من أن اعترافاته صادقة، يستطيع أن يلقي بها ربه وهو واثق بصحتها... أحب أن أكون واثقاً من مذكراتي ثقة روسو بمذكراته، ولكنني أستدرك استدراكاً، أتصور صوراً... أحلم أحلاماً... أتمنى تمنيات ثم يخيل إلي أن ذلك كله تم لي في واقع الحياة...

كثيراً ما تمر بي حادثة فأظن أنها مرت بي من قبل، وأني أمارسها مرة أخرى، ولولا أني لا أؤمن بالتقمص لقلت: إن هذه الحوادث مرت بي حين كنت في زمن من الأزمان إنساناً آخر... مخلوقاً ثانياً...

وكثيراً ما أنسى أكثر الأشياء التصاقاً بي وتأثيراً في مجرى حياتي... ويذكرني بها من له بي وبها علاقة.... وتبقى الحياة المكتوبة مجموعة غير دقيقة من الحياة التي يحياها الإنسان...

نعم... عندي من المذكرات، مجموعة ضخمة، وقد كتبت عن حياتي أثناء حياتي انطباعات كثيرة، لعلها هي التي تعينني أكثر من ذاكرتي على كتابة حياتي... ورغم ذلك تبقى هذه الحياة مزقاً...

وفي اعتقادي، وقد ذكرت ذلك مرات، أن أقل انطباع في الحياة... أصغر إحساس، أبسط شعور، لا يستطيع القلم، كل قلم، أن يحيط بشيء من أسرارها، تبقى الحياة دائماً شيئاً أعلى من أن يحيط به الأدب... وحتى حين يجمح الخيال، ويزيد الوهم، وتبدأ التصورات والوساوس وتتسع وتكبر، حتى تصل إلى الجنون، تبقى الحياة أكبر من الأدب، ومن القلم، ومن الريشة، ويبقى الخيال مهما سما أقل من الواقع...

إن البسمة الخالدة التي ترتسم على وجه الجوكندا، ظل من الظلال الباهتة لامرأة كانت هذه الابتسامة شيئاً منها، خلية من خلاياها، ثم استطاعت هذه الصورة تسجيل هذه الخلية الواحدة، واعتبرت من أجل ذلك عملاً خالداً.

هذا إنذار فيه صدق وتواضع، وليس فيه غلو ولا كبرياء. سأحاول أن أسجل حياتي على قدر ما أستطيع من صدق وإخلاص ودقة.. ومع ذلك تبقى حياتي شيئاً آخر تماماً.

ما أزال أذكر.

جلست أتقبل التعازي بوفاتها، بوفاة شطري الجميل الحبيب، وجعل الناس يأتون ويذهبون، وأقف عند كل قدوم، وأقف عند كل خروج... وأمد يدي ويتمتم لساني: ولكم البقاء...

خلت الغرفة دقائق من المعزين: تذكرت... انفجرت باكياً انتحب... أهكذا تصبح حياتنا، حبنا، كل ألوان العاطفة... كل آمالنا، كل شيء فينا، كلمات تعزية، أناساً يدخلون ويخرجون.. تصبح كلمة في فم "في حياتك البركة" وكلمة في فم آخر "ولكم البقاء".

صفوا لي هذه اللحظة... لا شك أنكم تخيلتموها، حاولتم أن تدركوا مداها وأعماقها، ومع ذلك تبقى هذه اللحظة من حياتي حياة كاملة لا يمكن أن توصف.

على هذا الأساس أكتب... أحاول... وأنا أعلم تمام العلم أن ليس في حياتي شيء خارق، أنا مثل الناس جميعاً، عشت وتألمت، وقاسيت، وأحببت، وفرحت، وتمتعت وفجعت؛ أنا مثل الأحياء جميعاً لي حياة فيها ألوان... بل ربما كانت حياة

الناس أكثر من حياتي ألواناً...، وأجل منها عظمة، ومع ذلك فليست حياة العظماء وحدها هي التي تستحق أن تكتب. أن حياة إنسان عاش إنساناً بسيطاً، ربما كان فيها ما يستحق أن يكتب أكثر مما تكتب الخوارق والأساطير... ذلك لأنها حياة أكثر الناس... حياة أجيال وأجيال من الناس الذين يصنعون الحياة...

وعندما أصبح ذكرى... عندما يصبح كل ما كنته في يوم من الأيام كتاباً، عندما أحشر في الآخرة، وفي يدي مذكرات حياتي... عند ذلك أقول في بساطة وإخلاص:

يا رب: لست أملك من البيان ما يبلغ قطرة من كتابك العظيم، وبيانك المبين... فهب لي من لدنك بياناً أكتب به مذكراتي مرة ثانية في الحياة الآخرة لتكون تماماً كما أريد.

ويا رب: هب لي من الآن شيئاً من البيان لتكون مذكراتي شيئاً مما أريد...

الناس ليسوا غيلاناً

عندما كنت صغيراً كنت أحب التجول في الأزقة والشوارع. لكأن مرضي في طفولتي أوحى إلي أن في السير والتجوال والحركة تعويضاً عن الضعف اللاحق والمرض المقعد، وكان أهلي يخافون علي، فيحذرونني من أن الغيلان ستمسك بي وتأكلني... كانت لنا صديقة تسكن حي الخالدية في جوار جورة الشياح، وهي التي اشترينا منها بيتنا في هذا الحي، بعد أن مات زوجها في الحرب العالمية الأولى، وكانت أمي تزورها من حين إلى حين. وتأخذني معها.

وسمعت أنها كانت تحمل مسدساً وأنها استطاعت في ليلة من الليالي أن تلاحق لصاً دخل البيت وأن تقبض عليه.

وهكذا تجمعت في قلب الطفل رغبتان: الرغبة في الحركة واكتشاف المجهول، والرغبة في رؤية هذه المرأة الشجاعة. ولم أبال بالغيلان، وكانت رحلتي قبل الظهر. لم يكن بيت المرأة بعيداً، ولكني ضعت فتشردت في الطرقات، ولم أهتد إلى بيت الصديقة.

ورأى إنسان هذا الطفل الشارد في الخامسة من عمره، فأمسك بي وأخذني إلى بيته وسألني عن أهلي...

جاءت زوجته فأطعمتني وسقتني وأخذتني في حضنها حتى نمت فوضعتني في السرير، وعندما استيقظت عند العصر وجدت نفسي في راحة تامة، وما أزال أحن إلى ذلك السرير النظيف المريح، وحملني صاحب البيت إلى أهلي فتحلقوا حوله يشكرونه وجعل أهلي يعنفونني ويهددوني بالغول، وأنا أرد عليهم فأقول: لم أجد غولاً، ولكن وجدت شخصاً طيباً وامرأة حلوة... غداً سأذهب إليها، ثم أعود.

لعل هذه الحادثة، في هذه الطفولة المبكرة، علمتني أن أثق بالإنسان وأن أحبه وأن أدافع عنه.

نعم إن الناس ليسوا غيلاناً.

البرغوث

أكثر ما ذكرت في مذكراتي حتى الآن يشير إلى الخبث والشر في نفس ذلك الطفل وقد آن أن أذكر حادثة أخرى ربما كانت تدل على شيء من خير.

كنت أحب في جولاتي أن أزور أبي في المسجد العمري الكبير، أن أدخل غرفته وهي تعج بالناس المراجعين في قضاياهم الشرعية من زواج وطلاق وسؤال عن حلال وحرام ثم أن أدخل معه إلى رحاب المسجد الواسع وأسبح في أركانه الشاسعة وأمتع ناظري بالركوع والسجود من الناس وهم يقومون بحركات غريبة ويتلون كلمات غريبة ويصيحون صيحات غريبة وأن أقف إلى جانبهم بجسمي الصغير، أعمل كما يعلمون وأركع كما يركعون وأسجد كما

يسجدون، أو كما يخيل إلي أنهم يصيحون ويتلون، ولعل من أثر زياراتي هذه للمسجد أنني عدت إلى الله بعد فترة طويلة من الشك. كنت في السابعة أو الثامنة من عمري على أبعد تقدير. وكان أبي يحب أن أزوره. فإذا انتهت صلاة المغرب أخذ بيدي وعدنا إلى البيت واشترى لي في الطريق بعض ما أحب من حلوى.

ذات يوم زرته مساء وكان مشغولاً بعد صلاة المغرب فأعطاني (برغوثاً) من عملة تلك الأيام وطلب مني أن أعود إلى البيت.

مضيت إلى بائع حلوى في الطريق واشتريت منه قضامة بالبرغوث، وعدت إلى البيت.

كنت ألبس ثوباً فضفاضاً له جيبان عن يمين وعن يسار وعندما خلعته سمعت صوت "البرغوث" يقع على الأرض ويرن... إذن فأنا لم أعط البائع حقه.

وعدت فلبست ثوبي، وذهبت إلى السوق وقلت للبائع: اشتريت منك، ولم أدفع لك. وهذا البرغوث لك.

ضحك البائع وسره أن يعود هذا الطفل الصغير ليؤدي الأمانة ونفحني كمية أخرى محترمة من القضامة وقال لي يودعني:

ـ بارك الله فيك يا بن الشيخ.

ما أزال أذكر هذه الحادثة فتسرني وتوحي إلى أنني ما زلت ويجب أن أبقى أبداً أميناً في شيخوختي كما كنت في طفولتي.

في دار المعلمين العليا

حاول القطر العربي السوري تأسيس كلية للآداب في حوالي عام 1925 واستمرت الدراسة سنة أو سنتين، ثم أغلقت الكلية وتأجل البحث فيها سبعة عشر عاماً.

لم يكن هنالك ما يمنع قيام مثل هذه الكلية، وقد نجحت كلية الطب وهي أول كلية في دمشق ونجحت كلية الحقوق، ففي سورية عدد كبير من الأدباء ومن أعضاء المجمع العلمي العربي، لم يكن مستواهم في حال من الأحوال أقل من مستوى المدرسين في كلية الآداب في القاهرة.

وكان نجاح كلية الطب مرتين أولاً في مستواها اللائق وثانياً وهو أمر جد خطير في تدريس المواد باللغة العربية،

وقد كان ينبغي لهذا النجاح أن يشجع قيام كليات أخرى.

وفي عام 1942 عادت المحاولة مرة ثانية وأحدثت دار المعلمين العليا وهي أشبه بكلية الآداب ــ لتدريس اللغة العربية للطلاب الذين سيتخرجون منها ليكونوا مدرسين للغة العربية في المدارس الثانوية.

ودعي الطلاب من حملة البكالوريا الثانية، وقد درسوا اثنتي عشر سنة، ثم من حملة دار المعلمين الابتدائية، وقد درسوا سنتين، فمجموع دراستهم 14 سنة، للدخول في مسابقة لقبولهم طلاباً في دار المعلمين العليا، على أساس أنهم معلمون، ومستمعون نظاميون في هذه الدار.

تقدم عدد من الطلاب إلى المسابقة، وكنت أول الناجحين، كان الفرق في العلامات بيني وبين الناجح الثاني أكثر من تسعين علامة.

وفي 16 كانون الأول 1942 دخلنا صفوفنا في هذه الدار وكانت في بناء كلية الحقوق سابقاً ودار المعلمين الابتدائية.

قبل في دار المعلمين العليا عشرة طلاب على ما أظن هم:

1ـ عبد الكريم زهور عدي حماة

2ـ نديم عدي حماة

3ـ شاكر مصطفى دمشق

4ـ حقي المحتسب دمشق

5ـ عز الدين العطار دمشق

6ـ عطاء الله مغامس دير عطية

7ـ ملك كبارة دمشق

8ـ نجاة قصاب حسن دمشق

9ـ نهاد هبراوي حلب

10ـ عبد المعين الملوحي حمص

وكان من أساتذتنا في هذه الدار:

1ـ الدكتور كامل عياد

2ـ الشيخ محمد بهجة البيطار

3ـ الأستاذ محمد البزم

4ـ الأستاذ عبد القادر المبارك.

5ـ محمد المبارك

6ـ أديب التقي

7ـ محمد أسعد طلس.

وبدأت الدروس في شكل جدي، وعملنا في الواقع عملاً طيباً، وكان من الممكن أن تستمر دار المعلمين العليا لتتحول في السنوات التالية إلى كلية للآداب.

كانت هنالك بعض النواقص، فليس من السهل أن ينتقل المدرسون الثانويون مباشرة إلى التدريس الجامعي. كان الأمر يحتاج إلى كثير من المشقة والتحضير، وكان مستوى الطلاب بعد 14 سنة من الدراسة مستوى جيداً فهم لذلك يحتاجون إلى مستوى من المدرسين الجامعيين جيد، وقد بذل الأساتذة كل جهدهم لبلوغ هذا المستوى وكنا نساعدهم في ذلك ونحاول حل مشكلاتهم في وزارة المعارف، ونشأت بين الطلاب والأساتذة علاقة صداقة متينة.

أرادوا وأردنا أن نجعل من هذه التجربة تجربة ناجحة، كنا نزورهم في بيوتهم وربما زارونا في بيوتنا، وكنا نتداول

في أمور الدراسة والدروس، واستطعنا أن نتدارك عدداً غير قليل من النواقص، وأهمها عدم وجود كتب وكتابة المذكرات وطبعها ونشرها.

أساتذتي في دار المعلمين العليا:

ولعل أقوى هذه العلاقات التي نشأت بيني وبين الأساتذة ما كان من صداقة بيني وبين الدكتور كامل عياد من الوجهة الفكرية وبيني وبين الأستاذة محمد البزم من الوجهة اللغوية.

الأستاذ البزم:

زرت الأستاذ البزم في بيته مراراً وكان في كل مرة يكلفني قراءة شعره، فأقرأه دون خطأ فيدهش ويستعيد القراءة ويستزيد ثم يطلعني على مشكلات النحو العربي وكانت له فيها آراء سديدة ويدلني على هذا الكتاب أو ذاك. كان رغم ضعفه الذي بدأ في تلك السنوات، جباراً في عقله وفي نفسه، حريصاً على كرامته حرصاً يبلغ حد المرض، كان أستاذ فذاً.

ولكن الملاحظة الغريبة التي لاحظتها، هو أنه رغم معرفته الدقيقة بأسرار اللغة وقواعد النحو ورغم أنه شاعر فحل، كان في تدريسه حين يتكلم باللغة الفصحى يقع في أغلاط يتلو بعضها بعضاً.

إن معرفة القواعد غير تطبيقها، وإن القدرة على الحديث السليم غير القدرة على معرفة اللغة ومشكلاتها، ولعل هذا الوضع هو الذي أوحى إلي منذ ذلك الحين أن علينا نحن المعلمين والمدرسين، أن نعمل على تعليم أولادنا القواعد إلى جانب تدريبهم على الحديث باللغة الفصحى، فالقواعد وحدها لا تكفي، ولا يمكن أن تحل قضية اللغة العربية إلا بالجمع بين التطبيق العملي للقواعد وبين فهم هذه القواعد فما فائدة أن تحفظ النحو ثم لا تطبقه.

الدكتور كامل عياد:

أما الأستاذ الدكتور كامل عياد، فكان مفكراً من طراز رفيع. كان يفهم تطور الحضارة وفلسفة التاريخ ويحاول في أسلوب علمي أن يغرس في عقولنا هذا الفهم.

لم يحاول فرض رأي، ولم يلجأ إلى الحلول الجاهزة، ولا إلى النظريات المجردة وإنما كان يحلل المجتمعات ويعرض ظواهرها ويخلص إلى نتائج تطوراتها.

وكان أحياناً لا يتقيد بالمنهاج الجزئي، وإنما يحاول إنشاء عقول وبناء إنسان. وأحسن ما يكون تدفقاً في حديثه وفي فيضه الفكري حين يغمض عينيه قليلاً ثم يفرك بيديه جبينه أو يمسح خديه ثم يجود في العطاء، كما يتدفق الجواد العربي الأصيل في حلبة السباق.

الحرية الفكرية، كرامة الإنسان، كراهية العبودية والاستعمار، ورفض الطبقية والاستغلال، تلك هي الجوانب المشرقة في الفلسفة التي أثرت فينا عند تدريسه لنا.

هكذا استطعنا خلال سنة واحدة أن نقفز قفزات جريئة حرة وطيبة في مجال الفكر واللغة والتربية.

إلغاء دار المعلمين العليا:

ولكن ذلك كله لم يعجب بعض المشرفين على المعارف، ولاسيما وزير المعارف آنذاك كانوا يريدون إلغاء هذه التجربة الجديدة كما ألغوا التجربة القديمة، وقالوا:

مـن الأوفـق ماديـاً ومعنويـاً أن يـذهب هـؤلاء الطـلاب علـى حساب الدولة إلى القاهرة وإلى كلية الآداب من أن يبقوا هنا في دمشق ليدرسوا اللغة العربية.

دافعت دفاعاً جاداً ضد إلغاء دار المعلمين العليا وحاولت إبقاءها وقلت: إننا لن نتعلم في مصر خيراً مما نتعلمه في سورية، وكان بيني وبين وزير المعارف آنذاك جدال عنيف، وكان معي من يؤيدني من الطلاب ولكن الوزير أصر على إلغائها، ووعد بإرسال الطلاب الذين فيها إلى كلية الآداب في القاهرة، وهنا تراخت عزائم بعض الطلاب، لأنهم سوف يسافرون ولأنهم سوف يرتاحون من التدريس، فقد كنا ندرس في دار المعلمين، وندرس في المدارس في وقت واحد، ندرس عند المساء وندرس في الصباح.

وهكذا صدر قرار بإيقاف دار المعلمين العليا بعد شهرين من انتهاء السنة الدراسية وظهور النتائج. كما صدر قرار آخر بإيفاد الطلاب للدراسة في القاهرة كمعلمين موفدين.

ولكن سورية لم توافق على هذا الحل الذي ارتآه وزير المعارف عام 1943، وما هي إلا ثلاث سنوات حتى أنشئت كلية الآداب.

تخلف بعض الطلاب عن السفر إلى القاهرة، فقد كانوا يدرسون الحقوق في كلية الحقوق إلى جانب دراستهم للغة العربية...

وسافر أكثر الطلاب إلى القاهرة وانتسبوا إلى كلية الآداب (اللغة العربية) و(الفلسفة) و(التاريخ) وكنت فيمن انتسب إلى قسم اللغة العربية.

في القاهرة

عقبات:

لم يكن سفري إلى القاهرة عام 1943 أمراً سهلاً ولكنه كان أعجوبة، وما أزال استغرب حتى اليوم كيف ذهبت. ولكن الظاهر أن البرجوازية مهما كانت قاسية فإنها تسمح أحياناً للناس بالتنفس، بل قد تكون أكثر رحمة من بعض الأنظمة الإرهابية القمعية رغم عناوينها المفرحة عند القراءة والمحزنة عند التجربة.

كان العالم يكتوي بنار الحرب، وكان يدفع يومياً دماء عشرات الألوف من القتلى ثمناً للحرية، كانت جحافل النازية تهدد الاتحاد السوفيتي وتحاول الاستيلاء على ستالينغراد، وتهدد شمالي أفريقيا كلها، وتحاول الاستيلاء على مصر.

وكنت مع الديمقراطية والحرية، كنت مؤمناً بأن الشعوب ستنتصر وأن النازية سوف تهزم في وقت كان يظن فيه الناس جميعاً في بلادنا، أو يظن أكثر الناس أن الديمقراطية ستهزم، وأن هتلر على الأبواب.

كانوا يضحكون علينا، وأقل كلمة نسمعها حيناً ونقرؤها على شفاه الناس حيناً إذا مررنا بهم هي كلمة:

مجانين... سخفاء...

ومن هؤلاء الناس وفي مقدمتهم كان جماعة يحيطون برئيس الجمهورية السورية آنذاك ويرئسهم شخص رجعي مخيف كثير النشاط.

وذهب إلى الرئيس يقول له: كيف ترضى أن يذهب عبد المعن الملوحي إلى مصر؟ إنه يملأ سورية فساداً، فهل تريد أن يفسد مصر؟...

وقال له الرئيس: طمئن الإخوان أنه لن يسافر.

وعرض الأمر على مجلس المعارف الأعلى.

في حياة الشعوب رجال غير مشهورين كثيراً، ولكنهم هم ملح الأرض. يفهمون العدل والحق ويحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يحققوهما في نطاق أعمالهم.

جودة الهاشمي رجل كبير:

وفي مقدمة هؤلاء الرجال عرفت سورية الأستاذ المرحوم "جودة الهاشمي" كان أستاذاً عالماً بالرياضيات، وكان مديراً ناجحاً في الثانويات، وكان أكثر من ذلك صاحب أخلاق، ووجدان، وكرامة..

في ذلك الوقت كان يشغل منصب المدير العام للمعارف، وعندما اجتمع مجلس المعارف الأعلى لتقرير إرسال طلاب دار المعلمين العليا إلى القاهرة وأوعز بعض المسؤولين إلى بعض أعضاء هذا المجلس بمنعي من السفر إلى القاهرة، كان موقف هذا الإنسان الكبير كبيراً.

طلب أضبارتي، ووجد أني ناجح بالدرجة الأولى في دار المعلمين الابتدائية ودار المعلمين العليا، ووجد أن علامتي باللغة العربية في البكالوريا الأولى كاملة، وأن لجنة التصحيح اقترحت طبع موضوعي في البكالوريا وتوزيعه على المدارس، وقال كلمته في صوته العريض المتهدج، وفي تصميم:

ـ عبد المعين الملوحي سوف يذهب إلى القاهرة، وإلا فسيذهب جودة الهاشمي إلى بيته.

ولم يجد مجلس المعارف بداً من الموافقة، فقد كان الأستاذ الهاشمي يفرض احترامه على كل الناس، ويفرض مع احترامه ما يستطيع من عدل وحق.

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من سعي ذلك الرجعي وجماعته.

وبدأت المرحلة الثانية في السفارة البريطانية.

كانت بريطانيا قد احتلت سورية مع جيش فرنسا الحرة، وكان لها فيها نفوذ كبير وذهب "الأخوان" إلى السفارة لعرقلة إعطاء الجواز وعليه تأشيرة دخول فلسطين ومصر.

كنت آخر من استلم جوازه، ذهبت أكثر من عشرين مرة إلى السفارة لأخذ جوازي وقالوا لي: أن الأوراق لم تستكمل، وغضبت مرة وثرت بالموظفين، قولوا: لن نعطيك جوازاً لأنك دمقراطي، وأريحوني...

وأخيراً اضطرت السفارة إلى إعطاء التأشيرة على الجواز وانتهت المرحلة الثانية. وعندئذ لجأ "الإخوان" إلى دوائر الأمن العام والمخابرات الأجنبية. إنهم لم يفقدوا أملهم

في النازية، ولكنه يبقى لهم سيد آخر مؤقت هو الاستعمار البريطاني أو الاستعمار الفرنسي، فهم يتعاملون معه ضد "الشيوعية" و"الحركات الهدامة".

وهنا تبدأ المرحلة الثالثة من الجهود "الوطنية" لعرقلة سفري إلى القاهرة...

قطعت تذكرة سفر بالقطار من دمشق إلى حيفا، ركبت القطار صباح يوم السبت في 27 تشرين الثاني 1943. ومعي صديقان من حمص هما عبد الودود الجندلي وطاهر التربدار.

فتشوني في درعا عريان:

وقف القطار في درعا.

كان على الرصيف ثلاثة من أفراد الشرطة:

انكليزي وفرنسي وعربي.

وصاح العربي بأعلى صوته:

عبد المعين الملوحي مطلوب... ينزل من القطار ويأتي بأغراضه...

قلت لصديقي: سافرا أنتما على بركة الله، فسوف أعود إلى دمشق.

حملت حقائبي وسرت: شرطيان من ورائي، وشرطي من أمامي، وأدخلوني غرفة فارغة تماماً، ليس فيها إلا الحيطان.

قالوا: اخلع ثيابك.

وبدأت أخلع ثيابي قطعة بعد قطعة، فيبحثون فيها ويفتشون، بل يفتقون بطانتها أحياناً. ولم يبق إلا السروال، فقالوا: اخلعه، تصورت أني أقوم بدور "ستربتيز" ولكن التسربتيز لا تخلع سروالها، أما أنا فقد كنت أكثر إغراء، وخلعت سروالي وبقيت عريان لا يسترني شيء.

ظلوا ساعة يفتشون، فلم يجدوا شيئاً في ثيابي ولا في حقائبي، قالوا: البس ثيابك. وعرفت أني سأعود إلى دمشق.

قالوا: احمل حقائبك.

خرجنا من الغرفة الفارغة، ولم أتجه إلى القطار، بل إلى باب المحطة...

وجـاء الشـرطي الإنكليـزي يدمـدم بلغـة فرنسـية ركيكة: أنا اشتراكي تقدمي، لذا لن أمنعك من السفر... سر بسرعة إلى القطار.

نحـن نشـترك الآن في حـرب إنسـانية ضـد النازيـة، وسنبقى أصدقاء ما دامت الحرب التحريرية قائمة...

وصعدت القطار الذي تأخر رحيله أكثر من نصف ساعة...

فرح صديقاي بي، جعلا يفركان أعينهما، أصحيح أني رجعت؟ أصحيح أني سأكمل طريقي معهما؟

وسافرت إلى القاهرة فوصلناها في 29 تشرين الثاني في الساعة التاسعة صباحاً.

في جامعة القاهرة

حيا الله القاهرة ومصر وحيا شعبها العظيم.

إن السنتين اللتين قضيتهما في جامعتها هما كل عمري...

كانت حياتي فيها ذات شعب أربع لم تطغ واحدة منها على أختها:

وزعت حياتي

الشعبة الأولى:

1ـ الدراسة:

فقد كانت دراستي جدية إلى حد بعيد، لم أكد أضيع محاضرة ولا درساً ولا أتأخر عن بحث أو وظيفة.

أساتذتي كانوا راضين عني رضاً كاملاً وكان الدكتور شوقي ضيف لا يناديني إلا بالأستاذ.

وصرح أمين الخولي، وكان عدواً لي لدوداً، إنه لم يحترم أحداً كما احترمني ولعداوته حادثة طريفة سوف أرويها في مكان آخر.

وكنت إذا اقترب الامتحان ضربت على نفسي حصاراً في البيت فلم أخرج منه، وأطلقت لحيتي فلم أحلقها، حتى يكون قبل الامتحان بيوم فاستدعي مصوراً يصورني مع لحيتي وشعري الطويل، ثم استدعي حلاقاً يحلق لي شعري، وفي صباح اليوم التالي اذهب إلى الامتحان.

لقد دخلنا نحن السوريين خريجي دار المعلمين العليا، في الصف الثالث أو السنة الثالثة من كلية الآداب قسم اللغة العربية، فقد كنا درسنا خمس عشرة سنة، ورأى القسم أن من الضروري اعتبار هذه السنوات فقبل انتسابنا إلى السنة الثالثة مباشرة.

لم يكن مستوى الدراسة في الجامعة صعباً، كان معقولاً إلى حد بعيد، ولم نجد في متابعة السنة الثالثة مشقة. وخير ما كسبناه من الجامعة علاقتنا الطيبة بالأساتذة ومعرفتنا لأساليب التدريس قبل المعلومات.

الشيخ أمين الخولي يهددني بالطرد:

كان أستاذنا المرحوم الشيخ أمين الخولي نموذجاً فريداً في التدريس وفي معاملة الطلاب، وخاصة طلاب سورية، كان يمثل الفرعونية بأجلى مظاهرها.

وكان يمثل الاحتقار الكامل لكل من لا يتبنى أفكاره فهو نازي عريق.

وكان يمثل السخرية بكل إنسان، فكأنما هو وحده كل شيء، والناس ليسوا بشيء. وكان يمثل النزعة السفسطائية بأغرب أنواعها، كان "مغالطاً" "ديماغوجياً" في شكل لا مثيل له.

أعطانا كتابه "في الأدب المصري" وطلب منا دراسته. من الدفة إلى الدفة دراسة دقيقة وخرجت بنتيجة واحدة لا ثاني لها:

الكتاب دعوة شعوبية ظاهرة إلى فصل مصر عن الأمة العربية، إنه مثل الدعوة الفينيقية في سورية، والدعوة الآشورية في العراق، والدعوة البربرية في المغرب.

وكتبت بحثاً طويلاً هاجمت فيه أفكار الكتاب هجوماً قاسياً، وهاجمت صاحب الكتاب أحياناً.

لا يمكن تلخيص كتاب الخولي، ولا تلخيص بحثي عنه في هذه المذكرات ولكني ألححت في ردي على ما يلي:

ـ مصر جزء من الأمة العربية.

الأدب العربي أدب أمة كاملة لا أدب قطر.

لا مانع من دراسة ما كتب من أدب وشعر في كل قطر عربي، ومصر من هذه الأقطار، ضمن إطار الأدب العربي والشعر العربي.

إن فصل مصر عن الأمة العربية سياسياً وثقافياً سوف يلحق بها الضرر، كما يضر الأمة العربية، لقد حاولت النازية فصل ألمانيا عن العالم فأوقعت نفسها في كارثة وهي الآن تبدأ في لفظ أنفاسها الأخيرة كان ذلك عام 1944.

وأعطيت البحث للأستاذ الخولي. كنت أعرف أني سأصطدم بالأستاذ صداماً عنيفاً وإني سأعرض بقائي في الجامعة إلى الخطر وقمت بمغامرة... وقلت في نفسي "ليكن ما يكون وكان ما كان"...

جاء الأستاذ بعد أسبوع أو أسبوعين يقول سائلاً في شيء من الحيطة والتجهم والتهكم:

ـ من عبد المعين الملوحي؟

ـ أنا يا أستاذ.

ـ أخرج إلى المنبر وحدثنا عن موضوعك.

ـ أخرج ولكن لي شرطاً.

ـ وما شرطك؟

ـ أن تتركني أتحدث نصف ساعة، ثم تتكلم كما تريد.

كنت أعرف طريقة الأستاذ في المناقشة، يخرج الطالب إلى المنبر ويهم أن يتحدث، فإذا قال مثلاً: بسم الله الرحمن الرحيم، قال له: هذا نفاق. قل ذلك في قلبك.

وإذا لم يقل: بسم الله الرحمن الرحيم، قال له: هذا نقص، كل شيء لم يبدأ باسم الله فهو أبتر.

ولا يكاد الطالب المسكين يتكلم كلمتين حتى يقبض عليه الأستاذ بكلتا يديه ويتحدث هو عنه ويهاجمه ويسخر منه ويجعله أضحوكة الطلاب.

والطلاب يضحكون وهم خائفون، لأنهم يعرفون أنهم سيقعون يوماً في براثن الأستاذ، ولكنهم لا يستطيعون إلا أن يضحكوا رغم أنوفهم...

وما أشد لؤم الطالب الذي يضحك من الطالب.

وقال الأستاذ:

ـ حسناً. اخرج وتكلم.

صعدت المنبر، وبدأت أتحدث عن موضوعي.

لم تمض دقيقتان حتى قاطعني الأستاذ الخولي وأخذ يتكلم، لملمت أوراقي وعدت إلى مقعدي.

قال: ولماذا عدت؟

قلت: كان الشرط أن أتكلم نصف ساعة فلم تتركني أتكلم أكثر من دقيقة.

واضطر الأستاذ إلى السكوت وقال:

ـ عد وتكلم...

لخصت آراء الأستاذ، ثم بدأت مناقشتها.

كنت هادئاً هدوءاً عجيباً.

إنني أعرف في نفسي خصلة غريبة جداً: أنا في الوضع الطبيعي كثير الحركة، كثير العصبية، ولكن حين أقع في أزمة أو ضيق أو مشكلة أصبح موزوناً ثقيلاً، تدخل أعصابي في براد، في ثلاجة... لا شيء يهزني أو يستفزني..

كـذلك كـان مـوقفي وأنـا أجابـه الأسـتاذ الخـولي، وأعرف مدى عناده وقسوته.

وما كدت أنتهي من موضوعي في تركيز شديد حتى صاح بأعلى صوته يستفز إخواننا المصريين في الصف:

ـ ولماذا جئت مصر يا شامي؟

ـ جئت آخذ الشهادة.

ـ أولا تريد أن نعلمك؟

ـ جئت آخذ شهادة.

ـ وصاح الأستاذ في غضب، بل زعق:

ـ أرأيتم يريد أن يهيننا في بلدنا، ما رأيكم يا طلاب مصر...؟

وانبرى طالب أعمى كان في صفنا يريد أن يدعم أستاذه نفاقاً:

وقلت له في هدوء:

ـ يا أخانا لا تضف إلى نفسك عمى البصيرة فوق عمى البصر، وسكت المسكين.

وقامت زوجة الأستاذ عائشة عبد الرحمن لتهاجم.

وقلت لها في هدوء:

ـ إننا نحترمك كزوجة ثانية لأستاذنا، ولكننا لا نحترمك كطالبة على الإطلاق.

وسكتت المرأة.

وزاد هياج الأستاذ:

ـ هذا الملوحي جاء يهيننا في عقر دارنا.

سنرى إن كنت ستبقى في الجامعة.

موعدنا في مجلس التأديب.

وقلت في هدوء:

ـ قلت لك يا أستاذ جئت لأخذ شهادة لا لأتعلم، وأنا أعرف طريقي إلى الشام فافعل ما تشاء.

وخرجنا من الصف.

توقعت في كل لحظة، وخلال أسبوع كامل، أن أدعى إلى مجلس التأديب وجمعت ثيابي للعودة إلى الشام، ولكني لم أدع.. إلى مجلس التأديب. وجاء درس الأستاذ في الأسبوع الثاني....

وقال لي في غضب:

ـ تعال إلى المنبر:

وجئت فلم يكد يسمح لي بالكلام.

كان إذا تكلم وأطال أفقأ كلامه بملاحظة صغيرة واحدة. وهاج الأستاذ وماج، وحاول مرة ثانية إثارة الطلاب، فلم يثر منهم أحد، وكذلك سكت السوريون فلم يتكلموا

كانت قاعة الدرس ساحة معركة.

وانفجر الشيخ انفجاراً مدوياً وزعق:

ـ لو كان الله عربياً لكفرت به.

ـ ولو كان محمد عربياً لكفرت به.

وقلت، وأنا أقف، وأجبت في هدوء عجيب:

ـ أما الله فليس بعربي ولا بأعجمي، وما يضر الله أن تكفر به أو أن تؤمن. وأما محمد فهو عربي وسيان آمنت أم كفرت، ولكني أسف على هذه العمامة التي تمتطي رأسك وهي شعار العروبة والإسلام.

وانتهت المعركة وقرع الجرس وخرجنا.

وانتظرت أسبوعاً آخر، ولم أدع إلى مجلس التأديب...

وسكت الأستاذ، وكان ـ يشهد الله ـ نبيلاً شريفاً.

وسمعت من أحد الأساتذة قوله: لم احترم طوال سنوات تدريسي غير طالب واحد: هو الملوحي.

معركة لم تتم:

وبعد عدة شهور طلب منا الأستاذ الخولي موضوعاً آخر في مادته الثانية، مادة القرآن الكريم، والسجع فيه.

وقبعت في مكتبة الجامعة: أدرس كتب الموسيقى، وكتب التراتيل، وكتب الأديان وكتب الأساليب، وما كتب العرب والأجانب عن هذا الموضوع، ثم كتبت الموضوع.

كان الأستاذ ـ رحمه الله ـ في غرفة الأساتذة حين دخلت عليه وقدمت له الموضوع الكبير الذي كلفني كثيراً من الجهد والدراسة والبحث، وقلت له في هدوء:

ـ خذ يا أستاذ. هذا الموضوع الثاني، بعد موضوع "في الأدب المصري" واقض ما أنت قاض، إنما تقضي في هذه الحياة الدنيا، هذا الامتحان الأدنى.

وأخذ الأستاذ الموضوع، وكانت علامتي بعد ذلك في مادة القرآن الكريم "ممتاز".

أما موضوع "في الأدب المصري" فقد رده الأستاذ ـ رحمه الله" إلي، وما يزال عندي.

وأما موضوع "السجع في القرآن الكريم" فلم يرده، وما أزال أتحسر على فقدانه.

رحم الله الخولي: لقد كان عنيفاً ولكنه كان شريفاً، كانت له أراؤه ولكنه لم يعاقب الطلاب على آرائهم، وإن كانت تخالف آراءه. ما دامت ذات منطق صائب وحجة دامغة.

لا أدري لعل الأستاذ الخولي بعد تلك المناقشة الصاخبة عدّل رأيه "في الأدب المصري" ورأيه في عروبة مصر.

جمال عبد الناصر والعروبة:

فأنا لم أقابله بعد أن تركت مصر في عام 1945 ولم أقابله عند زيارتي لها عدة مرات بعد هذا العام، ولكن الذي أعرفه أن مصر ـ وبفضل القائد العربي العظيم والرئيس الجليل جمال عبد الناصر، قد كانت طليعة الأمة العربية في

نضالها ضد الاستعمار وضد الصهيونية، وكان القائد الملهم عبد الناصر أول من أقام الجمهورية العربية المتحدة التي كانت أمل العروبة، والتي سقطت واويلتاه تحت براثن الاستعمار ومخالب الشعوبية، والحركات الانفصالية القطرية المجرمة.

العرب أمة واحدة وينبغي أن تكون لهذه الأمة الواحدة دولة واحدة كبرى.

لو حدث ذلك، وسيحدث ذات يوم، لتحركات عظام القائد العظيم فرحاً في قبرها في القاهرة، لقد كانت أكثرية مصر ـ ويا للأسف ـ فرعونية قبل عبد الناصر وأصبحت كلها عربية مع عبد الناصر ـ وانقلبت فرعونية مرة أخرى بعد موته.

أستاذي شوقي ضيف:

أما علاقتي بأستاذي الكبير الدكتور شوقي ضيف، فقد كانت علاقة ممتازة قلَّ أن وجدت بين أساتذتي من هو أكثر تواضعاً ودماثة من الدكتور شوقي، ومن هو في الوقت نفسه أكثر اطلاعاً ومعرفة.

كان واسع الأفق يفهم تطور الأدب والبلاغة والنحو، ويحاول في كل هدوء، أن يفهم طلابه هذا التطور. كان صديقاً لي فوق أنه كان أستاذي.

هذه الحادثة الصغيرة ـ الكبيرة. تدل على أنه عالم جليل يتمتع بكل أخلاق العلماء الكبار، كنا في الصف ذات يوم، وبدا له أن يسأل الطلاب سؤالاً يتبين منه مدى مطالعتهم للأدب العربي. قال:

ـ سأسألكم سؤالاً أرجو أن تجيبوني في صراحة، أرجو أن يسكت الأستاذ عبد المعين فلا يجيب.

ـ من منكم قرأ الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني؟

وسكت الطلاب جميعاً فلم يجيبوا.

والتفت إلي قائلاً:

ـ أنت قرأته ولا شك يا عبد المعين.

وأجبته في صدق:

ـ قرأته مرتين قبل أن أنال شهادة البكالوريا.

أخلاق العالم:

وهنا برز الدكتور في أروع مظاهر العالم الكبير فقال:

ـ أتعلم أني لم أقرأه كله إلا بعد أن أخذت الدكتوراه.

هذه الكلمة الصغيرة كشفت عن عالم كبير. عن إنسان رائع، في صدقه وفي تواضعه. كانت درساً لنا ولكل إنسان يحاول أن يكون إنساناً.

مد الله في عمرك يا دكتورنا العزيز...

إن دروسك علمتنا الأخلاق أولاً والأدب ثانياً.

لقد كنت تظن بي خيراً وتظن أن لي مستقبلاً، ولكن هيهات هيهات.

لقد أخطأت حياتي، رميتها فلم أصبها، ومضت مهدورة في الأدغال مع الوحوش والثعالب...

وأنا لا أستطيع استعادتها،

فاعذرني إذا أخلفت ظنك فقد كانت ظروف الحياة أقسى من أن أستطيع احتمالها.

لقد دفنت حياتي في الطين، في الوحل، في المجارير.

في المرة القادة سوف أحاول إنقاذها.

ليست هذه الكلمة لي، إنها للشاعر وصفي قرنفلي.

وصفي قرنفلي والزواج:

كنا جالسين في الروضة، وكان يدخن، وكان قد أصبح كبيراً، وجرى بحث الزواج وقلت له:

ـ يجب أن تتزوج.

وقال وهو ينفث دخان نرجيله.

ـ أصبحت الآن كبيراً، في المرة القادة سأتزوج وأنا صغير.

أما علاقتي بأساتذتي الآخرين فكانت علاقة طيبة أيضاً من الناحيتين الدراسية والشخصية، لم أكد أتغيب عن درس واحد، ولا أهمل الاستعداد لدرس واحد. وكنت إذا شعرت أني كدت أقصر أقرر ألا أخرج من البيت أسبوعاً وأسبوعين، فأكب على الدروس وعلى الكتب التي أجد فيها مصادر عن هذه الدروس، وأنفذ قراري تنفيذاً كاملاً فإذا شعرت أني قد وفيتها حقها خرجت من البيت.

أستاذي أحمد أمين والجمال:

أنموذج واحد من الأساتذة كان غريباً حقاً: إنه هو المرحوم الأستاذ أحمد أمين كان في كتاباته وأبحاثه أقوى منه في حديثه ومحاضراته. وكان أيضاً ـ وقد أدركناه، وهو في حوالي الثمانين ـ إنساناً عجيباً، كان يحب الجمال. ويحب المرأة حباً لا يستحي منه وهو في هذه السن.

كانت عندنا في الصف فتاة جميلة رشيقة لعوب، تلبس كل يوم ثوباً جديداً وكان أستاذنا رحمه الله معجباً بها، كثير الحرص على التحديق بها من وراء عويناته السميكة.

يدخل الصف فإذا وجدها في آخر الصف، وكانت تلجأ إليه لتتخلص من مداعبات الأستاذ دعاها إلى أن تجلس أمامه تماماً في المقعد الأول.

سألها ذات مرة وقد قرأت أن معركة من المعارك كان فيها عشرون بدرياً.

ـ ما معنى بدري يا عزيزة.

وقالت له مستغربة:

ـ أمثل هذا السؤال يطرح علي يا أستاذ؟

ـ نعم ما معنى بدري؟

ـ الذي يصحو "بدري" يا أستاذ.

وانفجر الأستاذ بضحكة رنانة صافية منطلقة من أعماق قلبه كأنها ضحكة طفل صغير كانت دروسه عن العصر الأموي، وعن النقائض بين جرير والأخطل، وجرير والفرزدق وهذه النقائض ـ كما يعلم الأدباء ـ مجموعة من الشتائم تتناول أول ما تتناول العرض والجنس وأعضاء الإنسان التناسلية، كانت فعلاً مزعجة منافية للحياء، ولكن الأستاذ كان يحلو له أن يصر على النقائض، وأن يدرسها من أولها إلى آخرها، وبكل ما فيها دون استثناء والأمر حتى هذا الحد يبقى معقولاً وضمن نطاق الجامعة والدراسة، ولكن الأستاذ أيضاً كان يحلو له أن يستدعي "عزيزة" بالذات لتقرأ هذه النقائض ولم يكن يكتفي منها بالقراءة فحسب، بل كان يدعوها إلى تفسير بعض الأبيات المخيفة، وكم كان يسر إذا سمع تفسيرها، ولو كان التفسير غير صحيح.

يمكن أن تتصوروا كيف قرأت الآنسة عزيزة، ثم كيف فسرت هذا البيت لجرير:

تنادي بنصف الليل يا لجاشع

وقد قشروا جلد استها بالعجارم

أو هذا البيت للفرزدق:

تركنا ... الباهليين بينهم

معلقة تحت اللحى كالتمائم

ثم كيف كان موقف أستاذنا الجليل من هذه القراءة وهذا التفسير.

رحم الله أستاذنا أحمد، كنا في ذلك العهد نضحك ونستغربه، فأصبحنا اليوم أكثر فهماً لصبابة الشيخ. وأقرب إلى تلمس العذر له.

2ـ الشعبة الثانية:

أما الشعبة الثانية التي اتجهت إليها حياتي في القاهرة فكانت في نطاق الفكر والثقافة والأدب. بذلت جهداً كبيراً في هذا النطاق.

قرأت كل ما عثرت عليه من كتب الفلسفة بالعربية وبالفرنسية، ولاسيما كتب الفلسفة الماركسية التي تسربت إلى مصر في شكل كبير خلال الحرب العالمية الثانية.

وقرأت كل ما عثرت عليه من الكتب الثقافية العامة ومن الأدب العالمي، ومن هذه الكتب التي قرأت "ذكريات حياتي الأديبة "لمكسيم غوركي" وقررت فور قراءتي له أن أترجمه، وترجمته فعلاً.

وتمت طباعته في القاهرة عام 1944 ـ 1945 وهو أول كتاب أطبعه، ولعله أن يكون أول كتاب لمكسيم غوركي باللغة العربية.

وقرأت كل دوستويفسكي وأعجبني أكثر ما أعجبني من مؤلفاته روايته "في سردابي" وقد بدأت بترجمتها، وأنا في القاهرة، لأطبعها بعد ذلك في حمص.

استطراد: كيف عرفت دوستويفسكي:

ولمعرفتي بدوستويفسكي حادثة طريفة:

عندما دخل الإنكليز سورية مع الديغوليين. للخلاص من ممثلي حكومة (بيتان) في فرنسا المحتلة، سافر عدد من

الموظفين الفرنسيين إلى فرنسا وتركوا وظائفهم في سورية ومن هؤلاء الموظفين كان المستشار أو ما يشبه ذلك في الرستن قرب حمص...

مررت ذات يوم في السوق وأردت أن أشتري شيئاً من الموالح، وجئت إلى دكان، وطلبت منه قضامة وبزراً، أعد البائع ما طلبت وأراد أن يضعه في ورقة، فإذا هو يخرج كتاباً باللغة الفرنسية ويهم بتمزيقه، فقد كان الورق غالياً في فترة الحرب، وكانت الكتب ـ واأسفاه ـ أرخص من الورق.

وإذا أنا أرجو البائع ألا يمزق الكتاب وأن يعطيني إياه لأراه... وقرأت بالفرنسية اسم (دوستويفسكي) المؤلف واسم الكتاب "المهانون المذلون"، وقلت له: من أين لك هذا؟ قال: عندي مجموعة كبيرة من الكتب اشتريتها من مستشار فرنسي عاد إلى فرنسا...

ورجوت البائع أن يريني هذه المجموعة:

وهالني ما رأيت: أكوام من الكتب فيها مؤلفات "راسين" كاملة ومؤلفات "روسو" و"فولتير" وهوغو" ومؤلفات

عـدد مـن الكتـاب الإنكليـز... والـروس... الحـق أن هـذا المستشار كان مثقفاً كبيراً.

بحثت في جيوبي فوجدت معي خمس ليرات سورية، وقلت للبائع:

ـ أعطني هذه الكتب.

قال: خذ منها ما تشاء.

وجمعت مجموعة كبيرة وحملت ما أستطيع وسرت بها ظافراً إلى البيت. ما تزال هذه المجموعة تشكل النواة الأولى والممتازة لمكتبتي باللغة الفرنسية.

كنت أتمنى أن أشتري كل الكتب... ولكن ما حيلة موظف يدفع كل ما بقي له من راتبه في شهر كامل ليشتري كتباً.

قرأت الكتاب فأعجبني جداً، واكتشفت أننا لا نعرف من الثقافة شيئاً، ولا من الأدب. لقد تعلمنا كثيراً عن الثقافة الفرنسية وقرأنا كثيراً من الأدب الفرنسي، ولكن سياسة فرنسا الثقافية كانت تقتصر على تعريفنا بالأدب الفرنسي وحده، أما العالم فما كنا نراه بل كنا لا نسمع بأدبه...

وخرجت بعد أيام، فإذا أنا في الطريق، في حمص، بصديقي المرحوم الدكتور "سامي الدروبي" قلت له فرحاً:

يا سامي لقد اكتشفت اليوم كاتباً كبيراً روسياً هو "دوستويفسكي" وقرأت كتاباً له هو "المذلون"

قال:

ـ وهل تعيرني الكتاب؟

وأعرته الكتاب، ولم يعد إلي بعد ذلك طبعاً.

أو لم يكتب أناتول فرانس في مكتبته هذا الإعلان العجيب:

"لا تعر كتبك لأحد فإنه لن يردها"

"لو فحصت مكتبتي أنا مثلاً، لما وجدت فيها إلا الكتب التي استعرتها من الناس".

رحم الله سامي:

لعل هذا الكتاب الذي استعاره ولم يرده، كان أول بذرة أوحت إليه أن ينصرف بعد سنين إلى ترجمة آثار دوستويفسكي الكاملة...

ولم أكتفِ بترجمة هذين الكتابين، بل ترجمت مقالات وأبحاثاً كثيرة أخرى.

وإلى جانب المطالعة والترجمة، كنت لا أكاد أترك محاضرة عامة دون أن أستمع إليها، وكانت أكثر المحاضرات تلقى في الجامعة الأمريكية في أول شارع القصر العيني، وممن استمعت إليهم المرحوم سلامة موسى...

نشاطي الفكري:

واشتركت اشتراكاً فعلياً في نشاط "لجنة نشر الثقافة الحديثة" و"دار الأبحاث" وكانت تضم النخبة المختارة من شباب مصر.

كما أسهمت في تحرير بعض المجلات اليسارية "الأسبوع" و"الفجر الجديد" ونشرت مقالات متعددة فيها أذكر منها على سبيل المثال، موضوعاً عنوانه "ليس بالصدقات يحيا الشعب" تعليقاً على إعطاء الدولة بعض الأموال للفقراء في الصعيد، عند زيارة بعض المسؤولين لها، وموضوعاً آخر عنوانه "أسرعوا في بناء السد" في أسوان. وموضوعاً عنوانه تعليقات على "مستقبل الثقافة في مصر"

وهو كتاب طه حسين، وجاءتني بطاقة من الدكتور طه يشكرني فيها على التعليقات ـ رغم أنها كانت شديدة ـ ويطلب مني مقابلته.

كان الدكتور طه حسين في تلك الفترة مشاوراً فنياً في وزارة المعارف" وزرته مع صديق مصري، وما أزال أذكر أنه قال لي بالحرف الواحد:

وقصد أنه يمضي مع اليسارية قدر طاقته.

كانت حياتي الثقافية والفكرية والأدبية ملأى بألوان وألوان، ولم تكن هذه الحياة لتحول بيني وبين الدراسة، بل كانت على عكس ذلك تزيدها وضوحاً وعمقاً. لقد تحولت الدراسة الجامعية إلى دراسة إنسانية إلى ثقافة.

نشرت في صحف القاهرة ومجلاتها عدداً من القصص منها "شبع كلب من جوع أهله" عالجت فيها ظاهرة "أثرياء الحرب" الذين تضخمت أموالهم على حساب الجماهير الكادحة، ومنها "يا حبذا التراث لولا الذلة" كما نشرت عدداً من القصائد، من أهمها قصيدة "بين الحياة والموت"[1].

---

[1] انظر ديواني "الحرب والحب".

وهي قصيدة طويلة تعكس انطباعات إنسان قوي في ميعة الشباب، لا يبالي بالموت ولا يهمه أن يأتيه الموت في أي شكل لأنه يعمل للحياة، لكسر جمود الفكر، لإيقاظ الشعب، للحب.

ومن هذه القصائد قصيدة في الحركة الوطنية في سوريا على أثر ضرب الفرنسيين لدمشق في عام 1945.

وقصائد أخرى كثيرة...

لقد كان نشاطاً أدبياً واسعاً متعدد الجوانب، ولو استمر كما كان في تلك الأعوام لكان من الممكن أن أقدم شيئاً ما للأدب العربي.

3ـ الشعبة الثالثة:

السياسة:

أما الشعبة الثالثة التي دار فيها نشاطي في سنوات دراستي في القاهرة، فكانت السياسة.

لقد كانت دراستي للماركسية في سورية دراسة نظرية بالدرجة الأولى وعملية بالدرجة الثانية، وكانت حماستي للاشتراكية حماسة إنسانية عامة، ذلك أن سورية، ولم

أكن قد خرجت منها، ولبنان، وقد زرته مراراً، دولتان تعيشان في رفاه نسبي، كانت الطبقة المتوسطة هي الطبقة الغالبة في المجتمع، ولم يكن الفقر شديداً ولا مخيفاً، ثم إن البرجوازية لم تكن إلا في بدء خطواتها نحو الصناعة، نعم، لقد كانت القرى فقيرة إلى حد ما، ولكنها لم تكن محرومة تماماً، ونعم لقد كان المرض الذي تحدثت عنه في فصل سابق يجتاح كثيراً من العمال في الأحياء الفقيرة، ولكن هذا المرض، وهو "الملاريا" البرداء كان يعم أكثر العالم، وشعب مصر، ولاسيما في جنوبي آسيا لوجود الحرب فيها، ولأن الحلفاء كانوا يحتكرون "الكينا" التي هي دواؤه الوحيد ليحموا جنودهم من البرداء، بعد أن استولى المحور وأصدقاؤه على مصادر الدواء، ولكن هذا كله رغم بشاعته، ولكن الفروق الطبقية رغم عنفها لم تصل إلى درجة ما شهدت في مصر من فقر ومن فوارق.

كان الفقر يفقأ عين من يرى، وكانت الفوارق الطبقية تطعن قلب من يشعر، وكانت صرخات المرض تصم آذان من يسمع.... وكان الجهل يكسف نور الشمس...

أكثرية الشعب يمشون دون حذاء..

أكثرية الشعب لا يجدون القوت.

أكثرية الشعب تقتلهم البلهارسيا.

أكثرية العمال جائعة.

أكثرية الفلاحين عارية.

وإلى جانب 95٪ من الشعب المصري كان 3٪ من الموظفين يعيشون عيشة كفاف وكان 2٪ فقط يتمتعون بكل خيرات مصر. أكثر مما يتمتع بالخيرات كل من في العالم من ملوك وطبقات مستعمرة وبرجوازية وارستقراطية.

كنت أعرف نظرياً أن سياسة فرنسا هي تجويع الشعب كله، لكيلا يفكر في تحرره وكان استعمارها يقوم على عدم السماح بقيام برجوازية وطنية تحاول أن تستقل.

وكنت أعرف نظرياً أن سياسة إنكلترا الاستعمارية هي إنشاء طبقتين اثنتين:

طبقة غنية فاحشة الثراء، ترتبط مصالحها بالمستعمرين.

وطبقة فقيرة مدقعة الفقر لا تفكر إلا في القوت.

هاتان هما سياستا الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين قبل الحرب العالمية الثانية. ولكني لم أكن أتصور مصر في

هـذا الفقـر القتـال وفي ذلـك الغنـى الفـاحش، في هـذا الوضـع الاقتصادي العجيب الذي لابد أن ينهار ذات يوم.

كانت الإقطاعية، وأكثرها من بقايا الأسر الحاكمة الأجنبية هي التي تملك الأرض.

وكانت البرجوازية، وأكثرها متحالف مع الشركات الاستعمارية الأجنبية هي التي تملك المعامل.

ويقوم على رأس هذه البرجوازية وتلك الإقطاعية ملك متفسخ لعله كان أغنى ملك في العالم.

وكانت الطبقة أو الفئة المثقفة تنقسم إلى قسمين.

الفئة الكبرى هي التي خانت قضية الشعب وعاشت على فتات موائد الملك والطبقة الحاكمة.

وكان على رأس هذه الطبقة المثقفة العميلة الأخوان مصطفى أمين وعلي أمين.

لا يمكن أن ينسى أحد في مصر أن هذه الفئة الكافرة بأمتها جعلت من الملك المتفسخ خليفة الله على الأرض، وأثبتت له نسباً هاشمياً، وجعلت فرار "الجمل" الذي كان يساق إلى المسلخ، فهرب إلى قصر عابدين، معجزة ربانية

وبركة إلهية لا يمكن أن تقع إلا لنبي أو ولي أو لأحد كبار الصالحين وأولياء الله المتقين.

الوفد المصري:

وكان الوفد في تلك الفترة يمثل الحركة الوطنية إلى حد بعيد، كان يضم عدداً من البرجوازيين الوطنيين ورجال الفكر المتحررين ولكنه بقي ضمن حدوده يراوح في مكانه لم يستغل شعبيته استغلالاً طيباً ولم يحذر الجماهير، ولم ينظمها، بل كان يقتصر على تنظيماته العليا، ولذلك فقد كان كلما جاء إلى الحكم يخرجه الملك بسهولة ليعود إلى صفوف المعارضة، فإذا حكم مصر قام بإصلاحات قليلة لا تحرك الشعب ولا تتناول بنية المجتمع الطبقي العنيف.

أما الفئة الثانية من المثقفين فهي الفئة الثورية، وكانت ثورتها تبدأ من الدرجات العليا لتهبط إلى درجة سفلى، يكفي الثوري فيها أن تدعوه الطبقة الحاكمة إلى مشاركته لها في "المكاسب" حتى ينحاز إليها ويكون ناطقاً باسمها، وينسى كل ما كان من "ثوريته" بل يشتم هذه

"الثورية" التي خدعته سنين، والتي كانت من وحي "الأجانب" والتي حرمته أن يتمتع بفضلات السادة فترة طويلة أو قصيرة.

كان الثوريون أو إذا شئنا الدقة قلنا كان التقدميون مبعثرين في كل مكان، في المعامل، في الجامعة، في الصحف، في المجلات، ولم تكن لهم منظمات تجمعهم وتلم شملهم.

كان كل شيء في مصر مستعداً للثورة ضد الاستعمار البريطاني أولاً، وضد الملك الرجعي العميل، وضد الطبقة الحاكمة، ولكن القيادة كانت غير موجودة.

قال لينين ذات يوم: إن الوضع في مصر كان يشبه الوضع في روسيا القيصرية قبل الثورة.

ولكن روسيا وجدت قيادة ثورية، أما في مصر فلا قيادة. كانت أكثر التجمعات بل أكثر التقدميين لهم علاقة قريبة أو بعيدة بالتجمعات أو بالفئات التقدمية الأجنبية، وخاصة باليهود. وكان هذا الوضع غير طبيعي على الإطلاق، فالشعب المصري يتحسس كثيراً من قضية

تدخل الأجانب مهما كانت اتجاهاتهم في قضايا مصر... وكان هذا التدخل يبعد كثيراً من الذين تفتحوا للثورة عن المثقفين التقدميين المصريين.

وبدأت في مصر حركة تهدف إلى جمع شمل التقدميين في منظمات أو جمعيات علنية، وكان من أول هذه الجمعيات أو اللجان لجنة نشر الثقافة الحديثة، ودار الأبحاث في كلية العلوم.

لجنة نشر الثقافة الحديثة:

كان من أعضاء لجنة نشر الثقافة الحديثة مصطفى كامل منيب وسعيد خيال، وصادق سعد، ورشدي صالح وكان بعض هؤلاء على اتصال ببعض الأجانب.

كما كان في دار الأبحاث أعضاء لهم علاقة ببعض الأجانب.

كان من رأيي عندما اتصلت باللجنة وبالدار وانعقدت بيننا أواصر الصداقة أن الحركة اليسارية في مصر لا يمكن أن تتقدم وأن تنمو إلا إذا انفصلت انفصالاً كاملاً عن كل ما هو أجنبي وإلا إذا استقلت في عملها استقلالاً

كاملاً وكانت عربية مصرية مائة بالمائة، وإلا فستبقى في حدود عدد من التقدميين يثرثرون ويتكلمون، ولن تتحول إلى حركة جماهيرية سليمة.

وحاول التقدميون بادئ الأمر أن يعارضوا رأيي ورأي كل إخواني المصريين الذين يرغبون في الانفصال عنهم، وكادوا يتهمون حركتنا بالشوفينية ولكننا وبعد اجتماعات كثيرة ومداولات أدرك من كان منهم تقدمياً صادقاً موقفنا السليم، وابتعدوا عن الحركات التقدمية الأجنبية إلى حد ما، ولكننا مع ذلك كنا نعلم أن بعض أعضاء اللجنة والدار كانوا ما يزالون محافظين على علاقاتهم بهؤلاء التقدميين الأجانب على مختلف مواقفهم ممن نشك فيه وممن نطمئن إليه على حد سواء.

كانت الحرب العالمية في أوجها، وقد بدأت علامات نصر الحلفاء تبدو في الأفق، وكان الاتحاد السوفياتي قد أوقف اندفاع النازية على أبواب ستالينغراد، بل بدأ يرد بعض الهجمات المسعورة ويقوم بهجوم معاكس، وأتاح هذا الموقف العسكري شيئاً من الحركة والحرية للحركات التقدمية.

كانت المحاضرات تلقى في اللجنة وفي الدار، وكانت محاضرات تقدمية جيدة، وجعلت هذه المحاضرات تجتذب عدداً متزايداً من المستعمرين، كما تميزت بشيء من الديمقراطية في النقاش بعد انتهاء المحاضرة، وكان يجتمع في هذه المحاضرات خليط من الناس، من كل نوع كان بعضهم يأتون لمجرد النظر والتفرج على هذه المخلوقات التقدمية، ولعله كان يريد أن يرى هل هي مخلوقات إنسانية حقاً مثله... فإذا تحقق أنها كذلك كف عن التفرج عليها، فإما أن يستمر في الحضور، وإما أن يكتفي بما رأى من أنها مخلوقات طبيعية لينقل إلى الناس هذا الاكتشاف الخطير...

وكان بعضهم يؤمنون بالديمقراطية على العموم لا بالتقدمية ولا بالثورية، كان هناك من يؤمن بديمقراطية إنكلترا إيماناً كاملاً ويدعو إليها ويناقش فيها، ويكره كل ما هو ثوري وتقدمي.

وكان بعضهم يهاجم الاتحاد السوفيتي، وإن كان غير راض عن النازية والفاشية.

بل كان هنالك من يرى في النازية عدواً للاستعمار، وإن كان لا يريد أن تنتصر في الشرق.

وقد أدت هاتان اللجنتان التقدميتان دوراً هاماً في تحريك العقول وبدأت المناقشات الحامية والآراء المتطرفة المعادية تخف تدريجياً بل بدا في آخر الأمر أن الفكر التقدمي قد توضح وأصبح شيئاً مفهوماً.

واستطاعت هذه الفئات التقدمية أن تجد الوسيلة إلى نشر بعض المجلات، فكانت مجلة الأسبوع، ثم كانت مجلة الفجر الجديد، وقد حملتا فكراً تقدمياً نظيفاً وشعراً ثورياً جيداً، وأدباً ماركسياً شريفاً.

لقد اشتركت في كل الحركات التقدمية في مصر، وأسهمت في مجلاتها وصحفها، وكتبت ونشرت وحاولت بكل جهدي أن أوضح أموراً ثلاثة:

أولها: أن مصر تملك طبقة عاملة وطبقة فلاحين بؤساء، وأن في إمكانها أن تخلق حزباً تقدمياً.

ثانياً: أن الحركة التقدمية يجب أن تكون حركة مصرية مستقلة.

ثالثها: أن مصر بلد عربي، وإن كل حركة تقدمية فيها ستنعكس على سائر الأقطار العربية وإن وجود الحركات التقدمية، بل حتى الأحزاب الاشتراكية في الأقطار العربية لا يجعلها أكثر قدرة على التقدم وعلى الثورة من مصر، بالرغم من أنَّ مصر لا تملك هذه الأحزاب، وذلك لأمر واضح هو أن الطبقة العاملة في مصر موجودة. ولها وزن غير قليل، وأن الطبقة العاملة في البلاد العربية الأخرى ما تزال ضعيفة في ذلك الوقت.

كان عملي السياسي ونشاطي التقدمي مظهراً من مظاهر حياتي اليومية في القاهرة، ولم يكن هذا العمل ليمنعني من الدراسة والكتابة والنشاط الأدبي.

الحق أن طاقة الإنسان هائلة ما دام يتمتع بحريته في بسط طاقته.

استطراد: اللهجة المصرية واللهجة الشامية:

من مشكلات هذا النشاط أن لهجتي الشامية كانت تسبب انزعاجات لأصدقائي

ـ جاءت امرأة تبحث عن أمين سر اللجنة ذات يوم: وقلت لها قبل أن تدخل عليه: (جاءت مره) وثارت المرأة فليست هي

(مره) إنما هي (سيدة) والمره في اللهجة المصرية هي المرأة التي لا يقر المجتمع سلوكها.

ـ كنا في اللجنة وثار نزاع بين شخصين وضرب أحدهما صاحبه وكان لنا صديق سجين فذهبت أزوره، وقلت له: سعيد "قتل" خالداً، وقتل عندنا في الشامية بمعنى ضرب، ولكنها في اللهجة المصرية تعني "أمات" كما في الأصل اللغوي. ورأيت الفزع يرتسم على وجه السجين، وقال لي:

ـ مات خالد

وأدركت خطئي، قلت له:

ـ لم يمت ولكنه ضربه.

قال وقد انفرجت أساريره

ما تقول يا شيخ أداه علقة

ضل من يدعو إلى اللهجات العامية في الأقطار العربية وأضل.

إن اللغة العربية الفصحى هي السبيل الوحيد للتفاهم السليم.

لو أني قلت في المرة الأولى، جاءت امرأة
لو أني قلت في المرة الثانية، ضرب سعيد خالداً
لما أثرت غضب المرأة ولا خوف السجين.

ذكاء قاطع تذاكر:

وعلى ذكر اللغة العربية فلا بد من ذكر هذه النكتة الرائعة التي حدثت لي في مصر:

كنت أركب الحافلة من باب اللوق مع الصديق الدكتور عبد الرحيم بدر، وجاء قاطع التذاكر ينادي باللغة الفصحى:

التذاكرُ التذاكرُ

وأراد عبد الرحيم مداعبته:

ـ لماذا تقول: التذاكرُ التذاكرُ

ـ وسأله قاطع التذاكر:

ـ أمال أقول إيه يا فندم؟

ـ قال عبد الرحيم:

ـ التذاكرَ التذاكرَ

ـ وتكون إيه؟

ـ هي مفعول به لفعل محذوف تقديره: أبيع التذاكرَ، اشتروا التذاكرَ وقال قاطع التذاكر:

ـ ما تفهم حاجة يا فندم في اللغة العربية: التذاكرُ مبتدأ مرفوع

ـ وأين الخبر؟

ـ الخبر الأسود: (وكسر الهمزة والواو) محذوف

ـ وما تقديره؟

ـ تقديره ثمانية مليم...

وقلت لعبد الرحيم إياك أن تعترض على ابن الشعب المصري، إنه قادر على أن يسخر بك. ما أطيب الشعب المصري وما أذكاه...

لو استطاع أن يبني حياة اشتراكية تقضي على الفقر والجهل والمرض لكان في طليعة الشعوب تقدماً.

انتهاء الحرب العالمية الثانية:

في 9 أيار (مايو) 1945 وكنت ما أزال في مصر انتهت الحرب العالمية الثانية، ووقعت في برلين وثيقة الهدنة بين ألمانيا، من ناحية، والاتحاد السوفيتي وبريطانيا والولايات المتحدة من ناحية أخرى.

وبذلك انتهت الحرب الإجرامية التي بدأتها ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية لاحتلال العالم.

انتهت حرب عدوانية كبرى كلفت العالم 50 مليون قتيل ودمرت كثيراً من البلاد كان انهزام النازية فرحة كبرى لكل التقدميين والديمقراطيين في العالم لقد انجلت عن صدر الإنسانية كارثة ليس لها مثيل.

كان بعض الناس في البلاد العربية، يؤيدون ألمانيا وحركاتها ضد دول الغرب الاستعمارية، لقد استطاعت أن تستولي على فرنسا، وأن تهدد بريطانيا، وأعانت على رفع معنويات الشعوب في البلاد المستعمرة، وذلك أكبر دولتين استعماريتين في ذلك العهد وغضت من كبريائهما وغطرستهما.

ولكنها ما كادت تفعل ذلك حتى انقلبت ضد الشعوب المسالمة الصغيرة في أوروبا، وبعد أن استولت على تشيكوسلوفاكيا وقسم من بولونيا والنمسا، جعلت تستولي على جنوبي أوروبا بدأ انحدارها في عيون الشعوب المستضعفة، ذلك أنها تركت بريطانيا والهجوم عليها لتذل هذه الشعوب الصغيرة.

الهجوم على اليونان وانقلابي الفكري:

كان بدء انقلابي على ألمانيا في يوم من الأيام، في حمص، كان انقلاباً فجائياً تجمَّع خلال شهور وسنين ثم انبثق من أعماق النفس.

كنت أسير مساء في شوارع حمص فإذا تصفيق حاد ينبعث من جماعة من الناس كانت تصطف على عرض الشوارع.

كان الناس يتجمعون حول الإذاعة، ويغدون، ويروحون، ويقفون ويجلسون.

خيل إلي أن لندن قد استسلمت وأن الدولة الاستعمارية الثانية خضعت بعد فرنسا.

واقتربت من الناس اسألهم عن سبب الهتاف والتصفيق فقالوا فرحين: سقطت أثينا.

كان الشعب اليوناني البطل يقاوم الضغط الألماني ثم يتساقط جنوده في الشوارع والطرقات نائمين رغم أنوفهم وكانت الدبابات الألمانية تهرسهم وهم نائمون لا يحسون ولا يتحركون... ثم إن الشعب اليوناني شعب ذو حضارة قديمة، كانت لنا به علاقات ثقافية واسعة وهو شعب صغير يدافع عن حريته ضد النازية، كما ندافع عن حريتنا ضد فرنسا، فلماذا نفرح بسقوط اليونان؟

هذا التصفيق السخيف، هذا الفرح اللئيم أيقظني من غفلتي، قلت للناس الذين سألتهم:

ـ ولماذا تفرحون بسقوط شعب صغير يدافع عن استقلاله؟

ـ ولم يجدوا جواباً، بل لقد سأل بعضهم بعضاً:

ـ حقاً لماذا نفرح بسقوط اليونان؟

منذ ذلك اليوم كرهت النازية ووجدت أنها لون جديد من الاستعمار، لون أكثر شناعة وقسوة وعنجهية.

هاجس أفسد فرحتي بالنصر:

وعندما هاجمت ألمانيا الاتحاد السوفياتي توطدت هذه الفكرة وتحققت تلك النظرية.

احتفلنا في التاسع من أيار 1945 مساء بسقوط النازية.

كان رفاقي يمرحون ويضحكون، وكنت لا أمرح مثل مرحهم ولا أضحك مثل ضحكهم. كنت واجماً قليلاً، حتى كدت أفسد عليهم فرحتهم.

وسألني أخ منهم: مالك على غير عادتك؟ واليوم عيد وقلت له ولإخواني:

ـ لست أدري ما حل بي ولكني أخشى على الحرية.

قالوا:

ـ كيف وقد قُضِيَ اليوم على النازية؟

قلت:

أخشى عليها من أمريكا، فقد خرجت منتصرة دون أن تصاب بكارثة كبيرة أخشى أن تحل محل النازية والفاشية في العالم.

كان رفاقي مرحين قد شربوا قليلاً وانتشوا. فقالوا:

ـ دعنا الآن من أمريكا فستصفي الشعوب حسابها معها.

قلت:

ـ ولكن بعد بلاء وشقاء لا حد لهما.

وتحقق ما توقعته. كل عنجهية النازية وكل غطرسة الفاشية، وكل وحشية إنكلترا وفرنسا تمثلت في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي حروبها العدوانية القذرة في كوريا وفيتنام وفي فلسطين وكمبوديا.

لم يكد يمضي عشرون يوماً على سقوط النازية وتحرير فرنسا حتى بدأت فرنسا تعود إلى سياستها الاستعمارية.

ضربت دمشق بالمدفعية في 29 أيار، وهاجمت المجلس النيابي السوري، وقتلت جماعة من رجال الدرك الذين دافعوا عنه وبدأت سورية ثورتها ضد الدولة المستعمرة التي كانت منذ أيام دولة مستعمرة لكأن العالم فقد أرواح 50 مليوناً من سكانه ليقضي على استعمار ألمانيا وليحل محله استعمار فرنسا وإنكلترا والولايات المتحدة.

مستعمر مكان مستعمر وكأن شيئاً في الأرض لم يحدث، كأن الملايين لم تمت لكأن ريح الحرية لم تهب على الأرض، على كل بقعة من الأرض في آسيا وفي أفريقيا وفي أمريكا اللاتينية.

في فلسطين

غادرت القاهرة في الساعة السادسة مساء يوم الجمعة 20 تموز (يوليو) 1945 بعد أن قضيت فيها سنتين.

وكان سفري بالقطار مع صديقي الدكتور عبد الرحيم بدر.

ووصلنا غزة في الساعة السادسة من صباح يوم السبت في 21 تموز قضيت في فلسطين أسبوعين.

زرت حيفا ويافا والقدس والخليل ورام الله وتعرفت إلى إخوان كثيرين في نابلس وطول كرم، وبيت جالا وبيت لحم.

كتبت في مذكراتي يوم الخميس في 2 آب بعد جولة في حيفا ما يلي بالحرف الواحد:

"درت في حيفا، ورأيت الموت والحياة، الموت في الأحياء العربية ولاسيما في الحي الشرقي، والحياة في أحياء اليهود"...

ولقد دار الصراع بين الموت والحياة رهيباً قاسياً، بعد ذلك بسنوات ثلاث جهرا، وكان يدور في الخفاء.

أعداء الكهرباء:

أذكر أن مظاهرة وإضراباً شاملاً حدثا في مدينة الخليل احتجاجاً على تفكير السلطات الإنكليزية في مد الكهرباء إلى المدينة.

وسقط قتلى وجرحى.

وسهرنا في الخليل على ضوء القناديل.

وفي اليوم الثاني زرنا قرب الخليل مستعمرة يهودية وكانت الأبقار فيها تحلب بالكهرباء.

في الليلة الثانية قلت في جرأة لأكثر من 50 رفيقاً كانوا في اجتماع في الخليل:

- يا إخوان، نتيجة المعركة بين العرب واليهود واضحة منذ اليوم.

إن حضارة القرن الرابع عشر أو ما قبل هذا القرن لا يمكن أن تنتصر على حضارة القرن الواحد والعشرين أو ما بعد هذا القرن.

لقد كنت قاسياً، ولكن هذا هو الواقع الحي.

إذا شئتم أن تنتصروا فينبغي مقارعة الحضارة بالحضارة والعلم بالعلم، والتقدم بالتقدم.

نحن الآن وفي هذه الليلة نستضيء بالقناديل، وعلى بعد أمتار تستضيء الأبقار وتحلب بالكهرباء.

وهذا ما حدث، هزمت حضارة القرن الواحد والعشرين حضارة القرون الوسطى.

وستظل تهزمها إلا إذا تحولت هذه الحضارة المتخلفة إلى حضارة جديدة متقدمة عندئذ يَفلُّ الحديد الحديد، يفل الفولاذ المسقي الحديد[1].

[1] وصفت الحادثة وصفاً مفصلاً في مقالي: "أعداء ألداء للماء والكهرباء".

العودة إلى سورية

غادرت حيفا بالسيارة إلى دمشق يوم السبت في 4 آب 1945 ووصلتها مساء في الساعة الثامنة.

لقد استغرق حصولي على إجازة كلية الآداب (قسم اللغة العربية) في جامعة القاهرة سنتين فقط، ذلك أني مع عدد من زملائي الذين قدموا من سورية كنا قد درسنا سنتين في دار المعلمين الابتدائية في دمشق ثم سنة واحدة في دار المعلمين العليا وذلك بعد الثانوية (القسم الثاني) ولذلك فقد قبلنا في الجامعة في الصف الثالث مباشرة، وبقي للناجحين في الإجازة سنتان من فترة انتدابهم باعتبار الانتداب كان لأربع سنوات.

كان من الممكن أن أبقى في القاهرة وأسجل اسمي في طلاب الماجستير ثم الدكتوراه وكان الحصول عليهما أمراً غير عسير.

ولكني فضلت مع عدد من رفاقي العودة إلى سورية بعد الحصول على الإجازة: كانت سورية قد أوشكت أن تستقل.

وكان الجلاء الفرنسي الكامل قد تم الاتفاق عليه في 17 نيسان 1946 وكانت سورية أول بلد عربي يتمتع باستقلال تام من بين البلاد العربية التي استعمرتها إنكلترا وفرنسا وإيطاليا.

ماذا كنا نريد؟

وشعرنا أن من واجبنا أن نشترك في بناء وطننا.

ـ نقضي على الأمة في سنتين أو ثلاث.

ـ نطبق التعليم الإلزامي على جميع الأطفال في سن الدراسة خلال خمس سنوات ثم نرفعها إلى 9 سنوات.

ـ نحرر بلادنا فكرياً.

نقضي على الإقطاع.

ـ نحدد الملكية الزراعية.

ـ نضع حدوداً للرأسمالية.

ـ نقيم حكماً ديمقراطياً شعبياً.

ـ نبني دولة تقدمية حرة.

ـ نضع أسس دولة اشتراكية.

ـ نلغي الحدود والقيود بين أقطار الوطن العربي الكبير.

كانت هذه بعض آمالنا في بناء وطننا.

ولم تكن هذه الآمال صعبة التحقيق.

كانت ممكنة.

خيبة الآمال:

وحدث غير ما كان ممكناً، حدث المستحيل، بقي الأمية وازدادت.

ـ ما يزال التعليم الابتدائي لا يطبق إلزامياً على كل الأطفال.

ـ العقلية تزداد تعصباً وتزمتاً وضيقاً وطائفية.

ـ الإقطاع تحدد ملكيته الزراعية، ولكن الذي حدث أن الأرض كلها ما وزع منها وما لم يوزع لا تنتج إلا القليل، وأن الإقطاعيين الجدد حلوا محل الإقطاعيين القدماء.

ـ الرأسمالية لم تزدهر في سورية يوماً من الأيام كما تزدهر في هذه الأعوام.

ـ الحكم حكم ارستقراطي بيروقراطي دكتاتوري فوقي.

ـ الدولة براقة الظاهرة مظلمة الباطن.

ـ الاشتراكية آخر ما يفكر فيه المجتمع بعد أن أفسدها التطبيق الذي يستند إلى أساسين:

سوء الفهم، وسوء النية.

وما أزال حتى اليوم اسأل نفسي:

ـ أما كان خيراً لك أن تكمل دراستك وأن تنال الدكتوراه؟

كما أكدت ذلك لأستاذك الارستقراطي الذي هددك بإسقاطك في الصف العاشر ونفذ هذا التهديد وقلت يومئذ له إنك ستنال الدكتوراه[1].

---

[1] انظر كتابي (نجوى حجر) ص 46 (حقد وحقد).

وتقول لي نفسي:

ـ لو فعلت ذلك لم تخسر سورية شيئاً وكنت أنت الرابح.

وأرد على نفسي كثيراً فأقول لها.

ـ لا بأس لقد فعلت بعض ما أستطيع. لقد أخطأت حياتي، وأخطأت حياة أمتي وشعبي رميتهما فأخطأتهما، ولكني رميت:

لا تلم كفي إذا السيف بنا

صح مني العزم، والدهر أبى

رب، ساع مخلص في سعيه

أخطأ التوفيق فيما طلبنا

لماذا ما نزال متأخرين؟

لماذا إذن أخطأنا أهداف حياتنا القومية ونحن نملك كل الإمكانات لتحقيق هذه الأهداف؟

لا شك أن هذا السؤال لا يمكن أن يكون جوابه في صفحات، بل هو يستحق كتاباً ضخماً ولكني مع ذلك أحاول أن أضع خطوطه الكبرى في هذه المذكرات.

أولاً: الاستعمار والتزاحم بين الدول الكبرى في هذه المنطقة.

شهدت هذه المنطقة في النصف الثاني من القرن العشرين، كما شهدت طوال تاريخها نفوذاً أو سيطرة استعمارية رهيبة.

فرنسا وبقايا نفوذها في المنطقة.

انكلترا ودسائسها.

أمريكا التي دخلت المنطقة، وكل مناطق العالم، لترث سيطرة فرنسا وإنكلترا فيها.

ثانياً: أعوان الاستعمار وأذنابه في المنطقة.

لقد رحل الاستعمار الفعلي عن المنطقة العربية، ولكنه أبقى له أعواناً وعملاء في كل مكان.

- عملاء فرنسا الذين ما يزالون يحنون إلى أيامها والذين تثقفوا بثقافتها.
- عملاء انكلترا الذين ورثوا عقليتها وتقاليدها وأتقنوا مؤامراتها.
- عملاء أمريكا ووكالة المخابرات الذين وجدوا فيها

بديلاً قوياً وغنياً عن الاستعماريين الراحلين.

ـ موقف بعض الملوك والرؤساء والزعماء العرب.

كنت دائماً أخالف النظرية التي تسند إلى الاستعمار وحده جريمة إبقاء بلادنا متخلفة متوزعة مقسمة.

كنت دائماً أقول: إن الاستعمار إذا لم يجد له أعوانه وعملاءه في البلاد العربية لم يستطع أن يفعل شيئاً.

كنت دائماً أعتبر أننا نحن أنفسنا المسؤولون الأساسيون عن كل تدهور في أوضاعنا السياسية والاقتصادية والفكرية كنت دائماً أردد مع الشاعر العربي.

لا يبلغ الأعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

ثالثاً: أكثر الأحزاب السياسية لم تضع منهجاً واضحاً، ولم تتقيد بالديمقراطية في حركتها وتطورها، وتحولت إلى أداة في أيدي الأفراد.

أكثر أحزابنا السياسية إن لم أقل كلها لم تضع برنامجاً اقتصادياً ولا سياسياً واضحاً. كانت مناهجها عامة مطاطة تتراوح بين أقصى اليمين وأقصى الشمال.

لم تكن تدرس بلادها وحاجاتها الحقيقية ومطالبها الموضوعية.

ثم إنها لم تسلك طريق الديمقراطية لا في قيادتها ولا في انتخاباتها، ولا في قواعدها، كان زعماؤها يفرضون سلوكهم عليها، وكان بعضها - ويا للأسف - يتلقى أوامره من دول أجنبية ولا يتقيد بمصلحة بلاده. كانت هرمية مقلوبة تماماً.

رابعاً: قيام إسرائيل:

لقد كان قيام دولة إسرائيل من عوامل إبقاء التمزق والتخلف في البلاد العربية على العموم، وخاصة في بلدان المواجهة. أكثر الموازنات تصرف في سبيل الجيوش.

لم يبدع الاستعمار طوال قرون حيلة أكثر نجاحاً لصد موجة التحرر والتقدم في البلدان العربية من حيلته في إقامة هذه الدولة العميلة. إنها تستنزف دماء الأمة العربية دون طائل. تمزقها وتعبث بها وتفرقها وتستعمر أراضيها. والأمة العربية ساهية لاهية عنها فعلاً وواقعاً بنزاعاتها الداخلية والخارجية.

قد يقول بعض الناس: لماذا جعلت قيام إسرائيل السبب الرابع في إضاعة الأمة العربية أهدافها، في ضياعها الكامل، وكان أولى بك أن تضعه في المقام الأول...؟ وردي على هذا الاعتراض ما ذكرته من قبل من أن الأعداء لا يبلغون من أذاك ما تبلغه أنت في أذى نفسك إذا كنت جاهلاً...

والذي حدث فعلاً أن رقعة الأرض المحتلة قد اتسعت بدل أن تتضاءل أو تنكمش.

لقد أصبحت إسرائيل كابوساً على الأمة العربية.

هكذا وجدت نفسي، وقد تركت مصر، ولي فيها سنتان من الدراسة وبقيت لي فيها سنتان أو ثلاث، وجئت إلى سورية اصطدم بكل هذه المعوقات والحواجز، لأجد نفسي وشعبي ونحن ما نزال نتعثر ونقدم رجلاً ونؤخر أخرى، ونمشي مرحلة ونرتد أخرى.

هكذا ضاعت أمتي وضعت وأنا ابنها الصغير في صحراء مقفرة، في بحر لجي متلاطم رهيب.

في حماة

وبدأت رحلتي في محافظات سورية.

سافرت إلى حماة وبدأت التدريس وقد سبقتني شهرتي إليها كملحد...

كان أخي أنيس قاضياً شرعياً في حماة فضاق بي وكنت أحرص على ترك زيارته لكيلا أزعجه...

سكنت غرفة في تجهيز حماة، وكان زميلي هناك الأستاذ زكي الأرسوزي، وكان ينام في غرفة مجاورة.

كنت أكثر الأحيان أعود إلى حمص حتى في أيام الدراسة وكنت قد جمعتها في ثلاثة أيام من كل أسبوع، وأبقى طوال الأيام الأربعة في حمص أدرس في المدارس الثانوية الخاصة.

كان مديرنا في حماة أستاذي قدري العمر، وهو إنسان أديب كبير ذواقة للأدب والشعر رائع، وإداري ناجح.

قصصت عليه ما جرى في حمص، وقص علي ما جرى لزميلي في حماة.

كانت سورية في ذلك العهد تجتاز مرحلة عجيبة مضطربة.

البلاد على أهبة الاستقلال.

والفرنسيون والإنكليز سينسحبون.

وظن كل حزب أن البلاد ستكون له.

البرجوازية ستنفرد باستغلال الشعب.

الرجعية ستكون حاكمة البلاد.

العمال يتحركون ليثبتوا وجودهم في الساحة.

الأحزاب التقدمية تريد أن يكون لها موضع قدم.

وهكذا.

كنت أنا وزميلي ضحية هذا النزاع.

وزارة المعارف أمام خط تقدمي. يجب أن تقف في وجهه وأمام هجوم رجعي يجب أن تسايره.

ونقلتنا من بلدينا لنعلم في بلد آخر

عشت في حماة ما بقي من السنة الدراسية

وحدثت فيها حوادث

كان الطلاب وقد حركتهم الرجعية. يحاولون إزعاجي

كانوا في الصف لا يستطيعون الإزعاج

فإذا خرجت وجدوا في الألواح ما ينفسون به عن غضبهم.

وعندما أدخل كانت هذه الألواح ملأى بإعلانات تحمل شتائم لا أهتم بها.

ـ ستالين عرص

الشيوعية إلحاد وكفر

وكانوا يوزعون منشورات غريبة

تكتب هكذا

الشيوعية

الشيوعية

الشيوعية

وتستمر إلى آخر اللوح أو الصفحة يزداد عرضها ويزداد حجمها وفي آخر الصفحة في أعرض خط يمتد من أولها إلى آخرها.

الشيوعية إلحاد

كنت أدخل الصف هادئاً.

وأمسح اللوح هادئاً.

أو آمر طالباً بمسحه.

وتجري الدروس في صورة طبيعية

وعرف الطلاب أنهم يستفيدون من الدروس فسكتوا وأطاعوا

إن خير وسيلة للنجاح في كسب الطلاب أن يكون مدرسهم ناجحاً

إنهم عندئذ ينسون مبادئه وأفكاره.

يختبرون لغتي:

حاول بعضهم أن يد مطعنا في معرفتي باللغة العربية

كانوا ينقلون ما أعلمهم إلى أهليهم.

مرة من المرات كنت أقول لهم: فعل نقص لازم ومتعد.

تقول مثلاً: نقص الماءُ، ونقصتُ الماءَ

وذهب أحد الطلاب وهو حفيد عالم كبير وشيخ جليل في حماة فأخبره الخبر.

وجاء الطالب في اليوم الثاني يقول لي:

ـ يسلم عليك جدي، نقص: فعلا لازم، وأنقص فعل متعد.

وقلت للطالب في هدوء:

ـ سلم على جدك، وقل له، ليقرأ القرآن.

واحمر وجه الطالب خجلاً وغضباً:

ـ جدي شيخ البلد، فهل أطلب منه أن يقرأ القرآن؟

وقلت له في هدوء مرة أخرى:

ـ سلم على جدك ـ وقل له: ليقرأ القرآن.

وجاء الطالب في اليوم التالي يقول:

ـ جدي يسلم عليك. لقد قرأ القرآن. جزاك الله خيراً.

ولقد ورد في القرآن الكريم فعل نقص لازماً ومتعدياً:

﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ ق 50

﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ هود 11

﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ الرعد 13

﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ الأنبياء 21

﴿ ثم لم ينقصوكم شيئاً﴾ التوبة 9

﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ فاطر 35

﴿ثم الليل إلا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلا﴾ المزمل 73

هذه الحادثة أوقفت كل سؤال بعد ذلك، لقد عرف الطلاب أن مدرسهم الذي يلبس طربوشاً والذي يرتدي بذلة، ليس أقل معرفة باللغة العربية من شيخهم الذي يلبس العمة ويرتدي الجبة.

لم أكد أنتهي من الناحية اللغوية حتى بدأت أحدث الطلاب عن الناحية الفكرية.

عندما كتبوا على السبورة: (ستالين عرص) أول مرة سكت وقمت بمسح الشتيمة.

وعادوا فكتبوها مرة بعد مرة.

وقلت لهم في هدوء:

ـ هل تعرفون يا أولادي ستالين الذين تكتبون عنه؟

ـ إنه رجل حرر أمته من الغزو النازي.

أتعرفون ما بلده؟

إنه الاتحاد السوفياتي الذي قدم 20 مليوناً من الضحايا، ليدافع عن وطنه أولاً، وليدافع عن الشعوب في تقرير مصيرها ثانياً.

ثم إن ستالين قدم أولاده للدفاع عن وطنه.

لم يعفهم من الحرب، بل زجهم في الصفوف الأولى من المعركة ثم إن كلمة "عرص" لا تستعمل في البلاد المتمدنة على الإطلاق "عرص" عندنا في حماة وفي البلاد العربية، أو في سورية على الخصوص تستعمل لمن يقدم بناته أو أخواته أو زوجته للناس ويقبل أن يكون الناس عشاقاً لهن.

أما ستالين فلا يقدم زوجته ولا أخته ولا ابنته للناس.

ومضت أيام وزالت الكتابة عن اللوح.

لقد دافعت عن ستالين. ولم أدر أن أهله وأصحابه ورفاقه سيكونون حرباً عليه سيتهمونه بأكثر مما اتهمه به

هـؤلاء الأطفـال المسـاكين. لم أدر في ذلـك الحـين أن حكـام وطنه سينقلون عظامـه مـن قبرهـا ليلقـوا بهـا في أحـد الأقبيـة. تحت جدار من الجدران.

لعلكم أيها الأطفال كنتم أرفق بـه وأكثـر حنانـاً عليـه من بعض أبناء وطنه الذي أنقذه.

السينما حلال لبنات الشيخ، حرام على غيرهن:

كان أخي أنيس ـ رحمه الله ـ قاضياً شرعياً في حماة.

وكنـت لا أزوره إلا قلـيلاً، وكـان لا يريـد أن أزوره إلا قليلاً.

إنه قاض شرعي، أما أنا فلست إلا مدرساً لعيناً.

كانت حماة في ذلك العهد تشهد موجة رجعية طاغية.

كان الرجعيون يريدون منع النساء من دخول السينما.

وبدأت حملة رهيبة.

النساء يتعرضن للشتم والقذف ورمي الحجارة.

ثم بدأ أسلوب جديد.

كانوا يلقون بماء الفضة على النساء، عندما يحاولن الدخول إلى السينما.

وكان ماء الفضة يحرق أثوابهن ومعاطفهن.
بل كان أحياناً ينفذ إلى لحومهن فيشوهها.
وكانت النساء يقاومن.
يتحملن الإهانة والإحراق بماء الفضة.
ويذهبن إلى السينما،
كنت مرة عند أخي.
ورأيت عنده شيخاً هو رئيس هذه الحملة ومدبرها.
وضقت به وأردت أن أخرج.
إن منظر هؤلاء كريه.
وإذا هو يستدعيني ويقول لي:
ـ متى تسافر إلى حمص؟
ـ اليوم.
ـ وكم تقضي في حمص؟
ـ ثلاثة أيام.
ـ أرجوك يا أستاذ أنا لا أستطيع النوم في الليل، بناتي يزعجنني كل ليلة، زوجتي تنازعني كل يوم، بل أنا لا أستطيع حتى أن آكل لقمة دون نزاع.

وجرض الشيخ بريقه وقال متابعاً:

ـ أرجوك، خذ البنات معك إلى حمص ليدخلن السينما، متى أردن، وسينمن عندك في البيت، فاسهر عليهن، لا تذهب معهن، أرسل معهن إحدى قريباتك. أرجوك.

كان منظر الشيخ يستدعي الشفقة، ولعل هذا المنظر هو الذي جعلني لا أصعق دهشة.

لقد غلبت الرحمة غضبي.

وأخذت البنات معي إلى حمص.

كن من أجمل فتيات حماة، وأرشقهن، وألطفهن، وأذكاهن ولكنهن واأسفاه ـ كن يمنعن من الزواج لكي تبقى ثروتهن في الأسرة: لآبائهن وإخوانهن، ولقد نهى الله أن تعضل فتاة.

وذهبن إلى السينما صباحاً ومساء وليلاً خلال ثلاثة أيام كاملة. وفي اليوم الرابع عدت بهن إلى حماة.

واستمرت عملية إلقاء نترات الفضة على النساء، بقيادة هذا الأب الذي أرسل بناته معي إلى حمص، إلى السينما.

وحادثة ثالثة أكثر غرابة.

يضعون في جيبي مسدساً

عرفت في دمشق صديقاً لي عزيزاً كان معي في الكلية العلمية الوطنية طالباً في الصف الحادي عشر، هو "نادر الزبرؤوتي" عام 1935

وفرقت بيننا الأيام، حتى التقينا في تجهيز حماة عام 1946.

وأقيمت في التجهيز مباراة رياضية بين فريقين رياضيين من طرابلس الشام وحماة في ساحة المدرسة.

كنت أقف على السطح أشاهد المباراة.

وفجأة وزعت منشورات بمهاجمة الشيوعية.

لماذا؟

لا أحد يدري.

وأعطوني منشوراً، فنظرت فيه نظرة عابرة، ثم مزقته ورميته.

وما هي إلا دقائق حتى رأيت نادراً يبحث عني وقد اصطبغ وجهه ألواناً أشدها الأحمر.

قال لي:

ـ أنت هنا، وأنا أبحث عنك.

ـ نعم.

ـ لا تغادر مكانك. دقيقة واحدة وأعود غليك.

وبعد دقيقة أو دقيقتين عاد إلي فعلاً، ووقف إلى جانبي.

وأحسست بشيء ثقيل وضعه في جيبي.

مددت يدي، فإذا هو مسدس.

قال نادر:

ـ يا عبد المعين، دعه معك، يريدون أن يعتدوا عليك.

وقلت له في هدوء:

ـ إذا كان طلابي يريدون أن يعتدوا علي فهل أقابلهم بالرصاص؟ كلا يا نادر، خذ مسدسك.

ورددت له المسدس.

وقف ورائي، والمسدس في جيبه يحميني.

رجوته مرات أن يذهب فأبى.

وانقضت المباراة ولم يعتد علي أحد، ولم يضطر نادر إلى إطلاق النار.

نـادر مـن أرق النـاس، ولم يسـتعمل المسـدس قـط، ولا يريد أن يستعمله، ولكن حبه لي ورغبته في سلامتي، كانا وراء حمله للمسدس، ولعلهما أن يكونا وراء استخدامه له لو اضطر إلى استخدامه.

ما أروع هذا الصديق!

في التفتيش

واستمر عملي في المدارس شهراً وأنا على هذه الحال حتى ضج الرأي العام ووجدوا في هذه المعاملة شذوذاً غريباً وتصرفاً معيباً وإذا مدير المعارف الجديد صاحبنا يستدعيني ويقول لي:

ـ لقد اتفقنا على أن تكون مفتشاً للغة العربية.

وهكذا بدأ عملي في التفتيش في المدارس الخاصة وفي المدارس الابتدائية الرسمية.

ما شعرت يوماً خلال سنوات التفتيش أني أنتمي إلى القائمين على الإدارة، كنت أشعر أني من المعلمين ولهم، أقدم لهم اقتراحاتي لتحسين مدارسهم ورفع مستوى طلابهم وأداء الخدمات لهم.

كنت أدخل المدارس صديقاً وأخرج منها صديقاً أقدم لها كل ما أملك من فهم وعلم ومعرفة وعرفت المدارس وإداراتها ومعلموها أني صديق، فكانوا يستقبلونني بترحاب.

كنت أعرف وضع المدارس الخاصة وما هي فيه من فقر وحاجة، وما تبذل من جهود لتدريس الفقراء في القرى خاصة، التي كان أبناؤها يقبلون على التعليم في حرص شديد.

كنت أرى الطلاب يحملون أوعية الكتب وأوعية الزاد من مسافات طويلة قد تبلغ أحياناً خمسة عشر كيلو متراً ليدرسوا، وكنت أرى كثيراً منهم في الجبال والأودية يسيرون وهم يقرؤون أو يجلسون وهم يكتبون.

إنهم أبناء شعبي ويجب أن أساعدهم في الدراسة وكنت أقدم للمدارس الخاصة كل ما أعرف من نصائح لتحسين التدريس، في وضع البرامج واختيار المدرسين، ووضع بعض وسائل الإيضاح السهلة كالخرائط وتحويل الدروس العلمية إلى دروس عملية على قدر المستطاع، وكنت أشعر في كل

زيارة أن الوضع قد تحسن قليلاً عن الزيارة الماضية، كانت الاستجابة شخصية مبنية على التفاهم أكثر ما كانت رسمية مبنية على الأوامر.

وتقدمت المدارس إلى حد ما، وأصبح قبول الطلاب أكثر تنظيماً وأصبحت امتحاناتهم ونتائجهم أكثر دقة. وخلال ذلك لاحظت أمراً عجيباً.

المدارس التي يشرف عليها أشخاص يتهمون في وطنيتهم وأحزاب تحاربها الدولة، كانت أكثر تنظيماً واستجابة للتنظيم من المدارس التي تشرف عليها أحزاب مقربة إلى الدولة أو أحزاب تدعي الحرص على الشعب والعمل من أجله.

وكنت لا أتأثر في معاملتي للمدارس إلا بدرجة حرصها على التقدم والرقي ومصلحة الطلاب. وكان هذا هو المقياس الوحيد لإعطاء الإعانات رغم قلتها عند توزيعها على المدارس.

حاولت في التفتيش أن انظم شيئاً من الجداول البيانية والإحصاءات، كنت أشعر أن هذا التنظيم جزء لا يتجزأ من عملي، وبدأت أصنع هذه الجداول:

عدد المدارس وتطورها خلال السنوات العشرة الأخيرة.

عدد الطلاب في المدارس

عدد الطالبات

عدد الصفوف

المتقدمون إلى الشهادات الرسمية

عدد الناجحين والناجحات

نسبة النجاح في المدارس الخاصة والرسمية.

أنفقت في صنع الجداول وقتاً غير قصير وبدأت الجداول تحتل لوحة وضعتها في مديرية العارف في صدر البهو الكبير.

وصار الناس يقرؤون الجداول ويفهمون تطور الحركة العلمية، كان أكثر الناس يعجبون بهذا العمل ويعتبرونه خطوة في طريق معرفة تطور التعليم في المحافظة.

ولكن كثيراً من إخواني المفتشين كانوا يرون في هذا العمل أمراً لا جدوى منه، ضياع وقت، طالما ضحكوا مني وهم يرونني أتعب في صنعها وقالوا:

ـ ماذا تعمل؟ أنت تتعب نفسك فيما لا فائدة منه.

ولكن أحداً منهم لم يستطع إقناعي بما قال، وظلت الجداول البيانية تظهر في اللوحات واحداً بعد واحد.

لم يكن العثور على المعلومات والإحصاءات شيئاً سهلاً وتلك هي الخطوة الأولى لوضع الجداول، ولم يكن وضع الجداول وتنظيمها أمراً سهلاً، ولا سيما بالنسبة إلى إنسان يبدأ فيها ويصنعها دون سابق علم بها أو تدريب عليها ولكن هذه الجداول ظهرت مع ذلك في شكل قريب من الصحة والكمال قرباً شديداً.

كنت كلما أصبحت أكثر رضا عن الجداول البيانية أصبح كثير من إخواني في التفتيش أكثر سخطاً علي وهزءاً بي، ولم أبال بكل ذلك بل سرت في طريقي مطمئناً أزيد في عدد الجداول ولا أنقصها وأسجل في كل سنة ما يطرأ عليها من تعديل.

في عام 1952 أجرت الدولة تعديلاً في حدود المحافظة فأدخلت منطقة تل كلخ في محافظة حمص، وكانت تابعة للاذقية وأدخلت منطقة مصياف في محافظة حماة وكانت

تابعة لمحافظة اللاذقية أيضاً، وراعت الدولة في ذلك قرب المنطقتين الملحقتين بالمحافظتين في حمص وحماة.

واتسعت بذلك دائرة عملي في المدارس الخاصة.

أزمة طائفية:

واجتزت أزمة طائفية شديدة في عملي في محافظة تل كلخ وخاصة في وادي النصارى، كانت المدارس في هذه المنطقة كثيرة متعددة الاتجاهات، كانت في الدرجة الأولى مدارس الكاثوليك، وهي مدارس ثانوية ومتوسطة وابتدائية في مرمريتا خاصة وفي بعض القرى الصغيرة، وكانت مهمتها التبشير بالكثلكة وتحويل السكان، وكلهم تقريباً من الأرثوذكس إلى الكثلكة مستخدمة في ذلك الترغيب ودفع الأموال عن بعض الخدمات.

الفلاحون الأرثوذكس في هذه المنطقة كانوا في الأغلب من الفقراء، وكانوا يتعهدون تدريسهم بالمجان لقاء تحويلهم إلى الكثلكة، وكان الفلاحون يقبلون ذلك، لو نظرياً، لأن دفع الأقساط لأبنائهم لم يكن أمراً يسيراً، وكان الكاثوليك في هذه المدارس يستغلون فقر هؤلاء الطلاب وحاجتهم إلى العلم.

بـل أن أكثـر هـؤلاء الفلاحـين فقـراء كـانوا يغـيرون مـذهبهم لمجـرد أن الإدارة في المدرسـة الكاثوليكيـة تـدفع عـنهم رسـوم إخـراج القيـد مـن السـجل المـدني في مركـز المنطقة، وكان إخراج القيد محصوراً في تل كلخ، وكان الأب الفقـير يضـطر للسـفر إلى تـل كلـخ يومـاً أو يـومين للحصول على إخراج القيد لابنه ليستطيع التقدم إلى الشهادة المتوسـطة أو الثانويـة، لأن إخـراج القيـد مشـترط في الأوراق الثبوتيـة في الشـهادات. أمـا إخـراج القيـد نفسـه فيكلـف 5 ليرات سورية إضافة إلى نفقات السفر.

مـن أجـل ذلـك كنـت تجـد عـدداً كـبيراً مـن أهـالي الطـلاب ومـن الطـلاب أنفسـهم يضـطرون إلى تغـيير مـذهبهم من أجل دراهم قليلة.

ولو كان الأمر يقتصر على ذلك لهان الموضوع، وكان من الممكن أن أقتصر على بعض التوجيه والتنبيه، ولكن الأمر تجاوز هذا كله.

كنت أدخل بعض الصفوف فأسأل طالباً: ما تدفع من الأقساط للمدرسة؟.. فإذا كان الطالب أرثوذكسياً خفض

رأسه في مسكنة وقال أدفع كذا وكذا... فأسأله ولماذا ـ فيجيب في خجل: أنا أرثوذوكسي... أو أنا روم.

وأسأل طالباً آخر كاثوليكياً، فإذا هو يرفع رأسه ويقول في كبرياء: أنا لا أدفع قسطاً، لأني كاثوليك.

لقد تذكرت جنوبي أفريقيا وعنصرية الوطن المحتل، وأنا أشاهد هذه المناظر.

قلت لإخواننا في إدارة هذه المدارس، لا يجوز التمييز بين الطلاب على أساس المذهب ثم أن المنطقة مسيحية، سواء أكانت أرثوذكسية أو كاثوليكية، فهناك الملايين المؤلفة من عبدة الأوثان والكفار، وهم أولى بالتبشير.

ولكن إخواننا لم يستمعوا إلى ذلك، وظلوا يمارسون تفرقتهم المذهبية، وبدأت أكتب تقاريري إلى مديرية التربية ووزارة التربية، وكان من المفروض أن تكون هذه التقارير سرية ولكني لا ألبث أن أسمع ما فيها يدور على ألسنة إدارات هذه المدارس بالذات وعرفت السبب:

كان وزير المعارف في ذلك الحين متزوجاً بامرأة فرنسية كاثوليكية وكانت تطلب منه إطلاعها على

التقارير، وكانت تتصل بإخوانها الكاثوليك في إدارة هذه المدارس وتطلعهم على تقارير هذا المفتش القاسي المسلم الذي يتدخل في شؤون المسيحية ويريد أن يوقف موجة تحويل الأرثوذوكس إلى الكثلكة.

وتوالت كتب الوزارة تطلب تغيير عمل هذا المفتش واستبدال غيره به، وقاومت المديرية هذا الاتجاه، ولم يلبث أن حدث الانقلاب ضد الشيشكلي وأطاح بالوزير وزوجته الفرنسية فيمن أطاح.

وبقي النزاع حول التمييز المذهبي والدعاية الطائفية على أشده.

لم أكن خصماً إلا لدعاة التمييز من الكاثوليك، أما الآخرون من الكاثوليك الذين لا يمارسون التمييز فقد كانوا من أعز أصدقائي، وأخلص إخواني، وكان على رأسهم المشرف على مدرسة الكاثوليك في حمص نفسها، وهو سيادة المطران يوسف رباني. كان يزورني في بيتي أحياناً، ويستشيرني في كل أمر يتعلق بالمدرسة وبالتدريس، وينفذ فوراً كل ما اقترحه عليه من تحسينات.

وظل الكاثوليك يعملون ضدي أمداً طويلاً حتى انتهت أيام نفوذهم بانتهاء زوجة الوزير.

ما الأرثوذكس، وكانوا جميعاً من أصدقائي، فلم يتدخلوا في النزاع، كانوا ينظرون إليه صامتين، لم يرتفع صوت منهم لمصلحة طائفته أو على الصحيح لمصلحة أمته، فلو أن الأرثوذوكس يعملون العمل نفسه في منطقة كاثوليكية لكان موقفي منهم مثل موقفي من الكاثوليك الذين يمارسون التبشير في منطقة أرثوذكسية.

ليس المهم عندي أن يكون هذا المذهب أو ذاك هو السائد، ولكن المهم ألا تستخدم هذه الأساليب في تبديل المذاهب.

في جنازة:

وأخيراً تحرك رجال الدين الأرثوذكس، وهم يرون هذا المفتش المسلم يدافع عن قضيتهم، وكان تحركهم نتيجة لموت صديق كان مدرساً ثانوياً ومديراً في إحدى مدارس حمص الرسمية، وهو المرحوم (عطا الله المغامس) فقد جاء عدد من المطارنة للاشتراك في الجنازة واجتمعوا في دير عطية بلد المرحوم وقرروا مقابلة الوزير لدعم هذا المفتش.

اشـتركت في الجنـازة واجتمعـت بالسـادة المطارنـة، وعندما سألوني عن موضوع المدارس وعن التمييز المذهبي فيها حدثتهم عن كثير من التفصيلات وقلت لهم: إني حتى الآن لم أجد من يؤيدني منهم في نضالي الذي اعتبره نضالاً إنسانياً وقومياً ضد الأساليب الرجعية والدعايات الطائفية وقال أحد المطارنة.

إن أكبر دليل على أننا نحن أبناء الطائفة الأرثوذكسية عرب أننا لا نتفق على شيء، وأننا مختلفون كالعرب تماماً.

وكانت النكتة نكتة ظريفة وموجعة في وقت واحد.

جاء بعد ذلك الوزير، صهر فرنسا، وزير من دمشق فاستدعاني لأحدثه حديث النزاع الذي ترامى إليه وسمع به من أركان الوزارة، وجئت دمشق لمقابلته.

سألني الوزير عن وضع المدارس وأخبرته عما فيها، وفهم وجهة نظري تمام الفهم وأقرها في عدم التمييز بين الطلاب على أساس المذهب، وفي أن التبشير له مجالات كبيرة في المناطق والشعوب التي لا تؤمن بالإله، وفي عدم جواز أخذ أقساط من ناس وعدم استيفائها من ناس،

وأخبرته عما قاسيت من إزعاجات بسبب موقفي المبدئي السليم ومن حملات شديدة توخت إزاحتي عن التفتيش، ومن كشف كل التقارير السرية ووضعها تحت تصرف الذين كتبت عنهم هذه التقارير، وخلال ذلك دخل الأمين العام غرفة الوزير، وسلم الأمين العام علي فسأله الوزير:

ـ كيف أنت والأستاذ عبد المعين...

ـ وأجابه: أصدقاء وأصحاب وإخوان...

وقلت له:

أنت صديق المدارس الخاصة، وقد كان موقفك مني عدائياً إلى أبعد الحدود.

ودهش الأمين العام فلم ينبس بحرف.

وعدت إلى حمص لأستمر في نضالي.

المدارس الخاصة:

كان هناك نوع آخر من المدارس يمكن أن نطلق عليه: اللون السياسي. كانت المنطقة خلال عهد طويل متأثرة إلى حد بعيد بأفكار الحزب القومي السوري. وكانت لهذا

الحزب مباشرة أو غير مباشرة مدارس مبثوثة في كل قرى المنطقة الكبيرة.

لاحظت أول ما لاحظت أن التدريس في هذه المدارس جدي، وأن أصحابها يبذلون أقصى جهودهم لضمان دوام صحيح، وتعليم جيد، وإدارة حازمة، رغم بعض المخالفات التي كانت تملأ المدارس الخاصة كلها من حيث قبول الطلاب في الصفوف.

لم أعامل هذه المدارس على أساس أفكارها، كنت أعاملها على أساس عملها وجدها، وكنت أحاول في كثير من الأحوال أن أجاهر برأيي في مسيرتها القومية، وكان أصحابها يستجيبون كثيراً لما اقترحه عليهم، كان بعض المدرسين إذا تغيبوا عن المدرسة لأمور عامة أو خاصة يسيرون على أقدامهم 15 كم أو 20 كم ليعودوا إلى المدارس في الوقت المناسب.

شعرت أن المسؤولين عن هذا اللون من المدارس لا ينقصهم الوجدان ولا تنقصهم الرغبة في أداء خدماتهم لطلابهم، وكنت فعلاً صديقاً لعدد غير قليل منهم أشعر

بأنهم يفهمون موقفي ومقترحاتي ويحاولون في جد تنفيذ هذه المقترحات لتحسين أوضاع المدارس في التعليم.

ونوع آخر من المدارس كانت مدارس قومية تحمل الطابع العربي الواضح، وتجدها تعمل بكل جهودها لبث الروح العربية في الطلاب وكانت ويا للأسف ذات اتجاهين:

- اتجاه عربي عام، واتجاه حزبي خاص.

وقد عزّ علي أن أجد بعض المدارس ذات الاتجاه الحزبي الخاص لا تبالي بمصلحة الطلاب ولا تحرص على تعليمهم.

التناقض بين الفكر والممارسة:

هذا التناقض بين الفكر والممارسة أزعجني جداً وجعلني أقف موقفاً صلباً: الميزان الوحيد الذي وزنت به هذه المدارس كلها من طائفية وحزبية وعامة هو ميزان ما تقدمه للمنطقة من خدمات وما تتقيد به من أنظمة، وما تحاول أن تطبقه من إرشادات وتحسينات.

ولقد أثار هذا الموقف بعض المدارس وجعلها تنضم إلى المدارس الطائفية في الحملة علي، ولكني كنت قوياً في موقفي أدعم كل آرائي بالإحصاءات الدقيقة والوقائع البينة.

حتى أن المسؤولين في وزارة التربية وفي المديرية في حمص وقفوا في صفي مدافعين.

هكذا كانت حياتي في التفتيش: حلقات متصلة من النضال في سبيل رفع مستوى المدارس مادياً وتعليمياً وتنظيمياً.

وأدركت بعض سنوات طويلة من النضال ثمرة ما قدمت من جهد، وعرفت المحافظة كلها ولا سيما منطقة تل كلخ وناحية الخريبة (الناصرة حالياً) في هذا المفتش أخاً وصديقاً حريصاً على مصلحتها ساهراً على طلابها.

خلال سنوات التفتيش قامت وزارة المعارف بتقديم يد العون إلى المدارس الخاصة. زادت في المعونة المالية لها زيادة ملحوظة، وخصصت لها عدداً من المدرسين والمعلمين، وكان توزيع الإعانات والمعلمين عادلاً إلى أقصى حدود العدل، وجاء عدد غير قليل من المديرين يعتذرون عما بدر منهم ويطلبون صداقتي بعد عداوة ويقرون بما جرى في مدارسهم من تقدم وتطور.

قال أحد الوزراء لوفد جاءه في موضوع:

المفتش الوحيد الذي أوافق على تقاريره دون مناقشة وأطلب تنفيذ ما فيها هو عبد المعين الملوحي لأنه مفتش ذو وجدان، لا تأخذه في الحق لومة لائم، رغم أني أعرف أنه شيوعي وهناك مفتش آخر لا أوافق على مقترحاته رغم أنه من الإخوان المسلمين.

كان مطرانا الطائفتين الكاثوليكيتين في حمص طائفة الروم الكاثوليك وطائفة السريان الكاثوليك صديقيَّ يزورانني في بيتي وأزورهما في أبرشيتهما وعمل هذان المطرانان الجليلان على إفهام المشرفين على أديرة الكاثوليك في مرمريتا موقفي وحيادي، وأخيراً فهم هؤلاء أيضاً حرصي على المدارس والطلاب وأصبحوا أصدقاء، وكفوا عن إثارة المسؤولين علي.

مفتش اللغة العربية:

عينت في أواخر الخمسينات مفتشاً أول للغة العربية في المنطقة الوسطى في محافظات حمص وحماة واللاذقية، وسرت في عملي في هذه الوظيفة كما سرت في عملي في المدارس الخاصة.

وقمت بجولاتي على المدارس الرسمية والخاصة في المحافظات الثلاث أثني على المدرس الجيد، وأشجع المدرس الضعيف، وأبين مواطن الضعف في المدرس المتردد، ولا أعير للإشاعات أذناً صاغية ولا غير صاغية، كانت مهمتي أن يكون تدريس اللغة العربية تدريساً ممتازاً يعين الطلاب على إتقان هذه اللغة العظيمة.

لم أترك مدرسة واحدة إلا زرتها مراراً، ولا مدرساً واحداً إلا وناقشت معه أمور التدريس، وكان بعض المدرسين يتمنون أن أزورهم دائماً لأعاونهم على حل مشكلاتهم.

حدث مرة أن جاء بعض المفتشين من دمشق لأرافقهم في جولاتهم.

كنت في الصف أفتش حين قرع الجرس وشعرت أن المفتشين يتراكضون إلى السيارة ليحتلوا أماكن جيدة، ولم أترك الصف إلا بعد إتمام المناقشة وجئت إلى السيارة أحتل المكان الذي بقي لي فيها.

وتكـررت الحادثـة مـرات وفهمـت أخـيراً أن المفتشـين يتزاحمـون علـى الأمـاكن الجيـدة في السـيارة ولاسـيما إلى جانب السائق، وتركتهم يفعلون ذلك مراراً، وأخيراً خجلوا من أنفسهم وكفوا عن الركض، وصرنا نأتي إلى السيارة بعد أن ينهي كل واحد عمله في صورة طبيعية.

مثل هذه التفاهات تحدث لأن الناس جميعاً يحرصون عليها، فإذا ما وجدوا آخرين منهم يترفعون عنها ترددوا ثم كفوا عن ارتكابها.

كنت أحياناً أترك السيارة في مكان ما، وأمضي إلى المدارس سائراً على قدمي، ولاسيما في منطقة تل كلخ. كنت أترك السيارة في رباح لتعود إلى حمص وتقوم بنقل المفتشين الآخرين، ثم أمضي بعد تفتيش مدرسة رباح سيراً على الأقدام، ألبس عباءتي وأكور كوفية الصوف على رأسي إلى كفرام، ثم أصعد الجبل لأعود إلى الطريق العامة فأصل إلى الجويخات وإلى عيون الوادي وربما تابعت طريقي لأصل إلى مشتى الحلو والكفرون، لأقضي في الكفرون ليلي، وكانت المسافة لا تقل عن 20 ـ 30 كم أقطعها في يوم واحد دون تعب ولا كلل ولا تذمر.

ـ لقد حدثت هذه الجولة مرات، ولاسيما في الخريف والربيع وكنت بها سعيداً، أليست هي التي قربتني إلى نفوس المواطنين فجعلوا ينظرون إلى نظرتهم إلى كادح منهم يمشي ويتعب في سبيلهم، ويدخل إلى مدارسهم دخول واحد منهم يريد أن يعاونهم في أمور تعليمهم، وربما رأوني أدخل عليهم وأنا أنفض المطر عني في فصل الشتاء أو أمسح عرقي عن وجهي في الربيع، وأنا أحمل حقيبتي بيدي.

ثناء بدل عقوبة:

حدثت لي في التفتيش حوادث كثيرة ذات أشكال متعددة منها حوادث أربعة: في اللاذقية:

1ـ كان اتجاه وزارة التربية إلى معاقبة أحد المدرسين وإحدى المدرسات بسبب علاقة شخصية بينهما.

دخلت صفي المدرس والمدرسة وحضرت دروسهما، كانت الدروس جيدة، وشخصية المدرسين واضحة واستفادة الطلاب حسنة، وخرجت من الدروس وأنا قانع قناعة تامة بإخلاص المدرسين في عملهما، ولم أعبأ بتوجيه المسؤولين في الوزارة ولا بالرأي العام بين المشرفين على المعارف في

اللاذقية، وكان رد فعلي أعنف مما تصوروا: أرسلت إلى المدرس والمدرسة كتابي ثناء على جهودهما في التعليم، وحدث عندئذ ما لم يتوقعه المسؤولون، فقد انتهت العلاقة بين المدرسين إلى زواج.

وكنت مسروراً بهذه النتيجة، إن القضايا الخاصة لا علاقة لها بالقضايا العامة. وهكذا انتهى الأمر.

2ـ مع الوحدة العربية:

في عهد الوحدة بدأ الشيوعيون بمحاربتها، وضاقت السلطات الإدارية بهم.

كنت مرة في مكتبي فإذا مدير المعارف آنذاك، وهو المرحوم عمر يحيى، يرسل الحاجب في طلبي، ذهبت إلى مكتبه لأرى فيه المحافظ ورئيس المخابرات ومدير التربية يعقدون اجتماعاً للتداول في موضوع موقف المديرية من الشيوعيين، وكان الوضع العام في البلاد متوتراً، وكان مدير المخابرات من أشد الناس على الشيوعيين:

جلست في مقعدي فسألني مدير المخابرات:

ـ ما رأي الأستاذ عبد المعين فيما يفعل الشيوعيون، وكيف نرد عليهم؟

كان الوضع كما قلت متوتراً، وكان مدير المخابرات يريد أن يختبر موقفي ليبطش بي، وقلت في صراحة تامة:

ـ أنا في أحد موقفين:

إما أن أرد التهمة عن نفسي وأطلب تشريد الشيوعيين وتسريحهم، وعندئذ سوف تسرون وتقولون: إنني لست منهم، وأكون في ذلك مدافعاً عن نفسي.

إما أن أنصح للجمهورية العربية المتحدة، وأقول رأيي لمصلحتها، وعندئذ سوف تسألون وتقولون: إني منهم وأكون في ذلك متهماً لنفسي، جالباً لها أذاها.

ومع ذلك فسوف أقول رأيي دفاعاً عن الجمهورية، لا دفاعاً عن نفسي، وليحدث ما يحدث:

إن عبد الناصر ليس مثل حسني الزعيم ولا أديب الشيشكلي، وفي اعتقادي أن الإرهاب ليس حلاً، وإنما هو طريق لإثارة الريب والمقاومة في الثورة.

أقصى ما أنصح به أن يستدعي مدير المعارف الشيوعيين ويناقشهم في موضوع تأييد الوحدة والكف عن إثارة الناس، وأظن أن بعضهم سوف يستجيب، فكل

شيوعي حقيقي يفهم وضع بلاده ووطنه العربي يؤيد قيام الجمهورية العربية المتحدة، لأنها تمثل ذروة المقاومة للإمبريالية والصهيونية.

هذا هو رأيي ذكرته لا حرصاً على مصلحتي ولكنه كان حرصاً على الجمهورية وعلى الرئيس. وحار المجتمعون في هذا الجواب، ثم وجدوه صواباً واكتفوا باتخاذ التدابير الإدارية المعقولة.

وحدثت بعد ذلك أمور كثيرة تجاوزت الموقف في ذلك الحين وانتقلت إلى موجة من الإرهاب والعنف لم يعد يجدي فيها كل صوت وصراحة واتزان.

3ـ الشهيد سعيد الدروبي:

ـ حدث أمر ثالث غريب: جئت مكتبي ذات صباح في دار الحكومة فوجدت على الباب أحد موظفي المباحث ينتظرني، وقلت: قد آن أوانك يا عبد المعين.

لقد قضيت خلال حملة الإرهاب ضد الشيوعيين شهوراً طويلة أنتظر فيها أن يقبض علي وأن أسرح وأن يزج بي في السجن، كنت أستيقظ أحياناً غير قليلة في الليل لأرى

أولادي نائمين فأودعهم. وأرى زوجتي نائمة عن همومي ومشاغلي، وأظل ألوب في البيت ساعة أو ساعتين ثم أعود لأنام.

كنت فعلاً مخلصاً عجيباً للجمهورية العربية المتحدة، اعتبرها مرحلة تنفيذ عملي للوحدة العربية الشاملة وسداً منيعاً في وجه الاستعمار، وخطوة على الدرب في سبيل تحرير فلسطين، ولم تخالجني لحظة واحدة من الشك. ولقد كان موقفي من الوحدة وحتى قبل قيامها مما أبعدني عن الشيوعيين مرة ثالثة بعد ابتعادي عنهم على أثر ثورة الجزائر وتقسيم فلسطين، ونشرت رأيي صريحاً في مقال عنوانه (رأي في الوحدة مع مصر)... نشرته في جريدة الطليعة. وظللت كذلك مدافعاً عن الوحدة حتى بعد الانفصال وقاسيت التشرد والسجن بعد الانفصال دفاعاً عنها ورغبة في العودة إليها. ومع ذلك فإن موقف المسؤولين مني، وخاصة في الدوائر الأمنية، كان موقف المتهم المرتاب.

عندما رأيت موظف المباحث أمامي ينتظرني على باب الغرفة، قلت: لقد انتهى الأمر. ولكن استقباله لي في حفاوة ودخوله الغرفة في حياء وجلوسه على المقعد في أدب بدد

شكوكي قليلاً، وعندما طلبت فنجاني قهوة لم يمانع، وجعلنا نشرب القهوة في بطء، وإذا هو يقول لي:

ـ لي عندك رجاء يا أستاذ... أمس في الليل انتحر سعيد الدروبي، والرئيس ـ رئيس المخابرات ـ يخشى أن نتهم بقتله، وهو يرجوك أن تذهب إلى بيت سعيد وأن تراه وتتحقق من أنه انتحر، لقد علق حزامه في شلال بيت الخلاء وانتحر.

كان الخبر جديداً، وكان الطلب غريباً.

أنا أعرف سعيداً جيداً، كان تلميذي، وهو ابن عم زوجتي، كان مفعماً بالحيوية والنشاط والأمل، وليس من المعقول أن ينتحر، ثم إن من يدخل المخابرات يخلعون منه كل الأدوات وحتى حزامه وربطة عنقه، فكيف إذن ينتحر وفي بيت الخلاء.

وقلت له: سوف أذهب وأرى وأبدي رأيي لك.

واتفقنا على ذلك، وخرج وهو يعد بالعودة بعد ساعات.

كان بيت المرحوم سعيد الدروبي قريباً من دار الحكومة، وذهبت إليه. كان البيت يغص بالنساء صارخات مولولات، يلبس ثياب الحداد، وتمدد سعيد في بهو البيت على سريره جثة هامدة.

كان منظره رهيباً: الوجه تغطيه الكدمات، والرجلان منتفختان زرقاوان من الضرب والتعذيب، كانت كل خلية فيه تصرخ في صوت هادر مخيف: لقد قتلوني، عذبوني حتى مت بين أيديهم.

لم يكن بين كل من رأى جثة سعيد، عاقل واحد يمكن أن يدعي أن هذا الإنسان مات منتحراً.

كان سعيد تلميذي وقريبي، كان ابن عم زوجتي، وسالت من عيني دمعة حزن على موت الشهيد الشاب، وسالت من عيني دمعة أخرى على ما حل بالجمهورية العربية من آثام وكوارث، ما هكذا ينبغي أن يعامل المواطنون، أن يكونوا عرضة للقتل بسبب من آرائهم أو معتقداتهم.

وقفت طويلاً أمام الجثة أقرأ الفاتحة ثم شققت طريقي بين الناس وخرجت وعندما خرجت الجنازة من البيت سرت وراءها في عداد المشيعين.

كانت الجنازة حافلة بالناس، لكأن حمص كلها احتشدت فيها، وكانت رهيبة. هاهنا شاب في مقتبل العمر يموت تحت التعذيب لأنه ذو عقيدة، وانطلقت الهتافات،

لكأن الموت أعاد إلى المدينة الحياة، فهي تعبر عن حياتها بهتافاتها، وصعد بعض الشباب على ظهور إخوانهم يصرخون ويشتمون وهم يعلمون حق العلم أنهم عما قليل سيقعون في أيدي المخابرات والمباحث وأنهم قد يلاقون ما لاقى رفيقهم الشهيد.

يحدث في كثير من الأحيان أن يكون الاحتجاج على الظلم أقوى وأشد من الظلم نفسه. المحتج يرى بعينيه نتائج الظلم ويعرف أنه سيكون معرضاً له، ومع ذلك يحتج عليه بكل ما يستطيع تعبيراً عن رغبته في الحرية والعدل واستنكاره للعبودية والظلم والجريمة.

كانت عدسات المصورين تلاحق موكب الجنازة، وكان رجال المباحث يحيطون بها من كل جانب، ومع ذلك فقد استمرت الجنازة هادرة صاخبة حتى وصلت المقبرة، وحتى في المقبرة، انطلقت أصوات الخطباء في تشييع الشهيد وفي استنكار الجريمة.

وعدت من الجنازة إلى مكتبي، وأنا أشعر بأني قمت بواجبي لا أكثر من ذلك ولا أقل. وجاء رئيس المخابرات

يقول لمدير التربية آنذاك: انظر، هذا المفتش يخرج في تشييع جنازة شيوعي ويجب أن يعاقب.

كان مدير التربية نبيلاً حقاً ـ وهو الأستاذ صلاح الدين خربوطلي، فقال لرئيس المباحث:

ـ لا تنس أن المرحوم سعيداً معلم في مدارسنا وأن على مديرية التربية أن تشترك في تشييع جنازته وقد أوفدت الملوحي ممثلاً لمديرية التربية في تشييع الجنازة، ثم لا تنس أن الملوحي قريب المرحوم فزوجته بنت عمه.

وانطوت صفحة أخرى من الرغبة في إيذائي.

معركة اللغة العربية

تيسير قواعد اللغة العربية:

اشتركت كمفتش أول للغة العربية في مؤتمر عقد في القاهرة للبحث في (تيسير قواعد اللغة العربية) عام 1960، وحضر عدد كبير من المفتشين في الإقليمين المصري والسوري. وكان أكثر القائمين على تأليف كتب التيسير من إخواننا المفتشين في الإقليم المصري.

لم أحضر جلسة المؤتمر الافتتاحية. وحضرت في اليوم الثاني. وقالوا لي: إن الجلسة الأولى شهدت ميلاً نحو التيسير، وإن كثيراً من إخواننا في الإقليم السوري مالوا إليه أو سكتوا عنه.

لاحظت أول ما لاحظت أن ممثلي الإقليم المصري كلهم من أصحاب التيسير وليس فيهم واحد من دعاة النحو العربي الأصيل، وسألت المشرف على المؤتمر أيجوز ألا يكون في مصر كلها من يعارض التيسير؟... أين فلان وفلان؟... وعددت أسماء بعض النحاة المصريين. وقال المشرف: لك الحق يجب أن ندعو الفريق الثاني كما دعونا الفريق الأول. وفي الجلسة الثالثة حضر بعض المصريين المعارضين للتيسير وبدأت المناقشات الحامية، وكان من أبرز الحاضرين الأستاذ عباس حسن، صاحب "النحو الوافي".

بعد يومين أو ثلاثة اعترف أنصار التيسير بالهزيمة وجاؤوا إلينا يطلبون منا تأييدهم لقاء اشتراكنا معهم في التأليف وقلت لهم في صراحة ما بعدها صراحة:

ـ لست حريصاً على شيء، لا على مال ولا على شهرة ولا على زينة في الحياة، ونفضوا أيديهم من شراء الضمائر، وعند ذلك قالوا: لقد وضح عجزنا النظري في مسألة النحو، وعليكم أن تروا نجاحنا العملي في التدريس. ذهبنا إلى عدة مدارس لنشهد هبوط المستوى العلمي إلى أبعد حد.

الطلاب يقفون عند الساكن في آخر كل كلمة، ولا يجيدون حتى القراءة، والكتابة وأخيراً أخذونا إلى مدرسة القبة النموذجية للبنات ودخلنا الصف التاسع.

كنت قد جئت معي من سورية بنموذج لامتحان الشهادة الإعدادية فيها وفيه نص لأبي العلاء المعري، هو نصه المشهور:

ولو أني حبيت الخلد فردا

لما أحببت في الخلد انفرادا

فلا هطلت علي ولا بأرضي

سحائب ليس تنتظم البلادا

قلت للطالبات: أخرجن دفاتركن وأقلامكن، أريد أن أملي عليكن نصاً. قرأت النص مرتين ثم طلبت من الطالبات الكتابة، وإذا جميع الوفد المصري يخرج من الصف، وأدركت الحيلة، إنهم يريدون أن يخرجوا احتجاجاً على هذا النص، وقالوا جميعاً: هذا نص لا يعطى إلا في الجامعة.

وأريتهم بأم عيونهم أن النص أعطي في الشهادة الإعدادية في سورية منذ عام 1950 وإننا نعطيه الآن في الصف التاسع الإعدادي. وأخيراً، وفي سبيل تسوية الموضوع، عرضت عليهم أن يكون النص إملاء فقط، ورضي المصريون وعادوا إلى الصف. وأمليت على الطالبات النص مراراً ثم جمعت أوراقهن.

كانت الأوراق فضيحة من الفضائح، لا يمكن أن يرضى بها إنسان.

ما يزال بعضها عندي

كثير من الطالبات كتبن على هذا الشكل:

حبيتو، الخلدن، فردى، أحببتوا، بخلدن، فرادى

إنهن لم يعرفن كتابة البيتين فكيف يعرفن شرحهما ومعناهما.

رأيت هذه النتائج المخجلة فصرخت بأعلى صوتي: والله إنكم لا تعلمون العربية ولكنكم تهدمونها.

وكانت لهذه الزيارة الفاضحة نتائجها، ونشرت في مجلة (آخر ساعة) رأياً في التيسير، وأحسنت المجلة فنشرته في صدر صفحتها الأولى.

وانهارت هذه الطريقة المدمرة وقررت وزارة التربية التخلي عنها.

وعدنا إلى بلادنا وقد حققنا نصراً للغتنا.

على أثر المؤتمر نشرت مجلة آخر ساعة في عددها 386 الصادر في 17/ 5/ 1961 المقال الآتي في الصفحة الأولى من المجلة بقلم الأستاذ محمد التابعي:

ثم هذا الخطاب الذي جاءني من السيد الأستاذ عبد المعين الملوحي، مدير المركز الثقافي العربي في حمص (الإقليم الشمالي).

وقد حذفت من خطابه بعض العبارات التي تحمل في طيها اتهامات جارحة.

وأحب أن أقول قبل نقل خطاب سيادته أن رجال التعليم حرصوا في مذكرتهم إلي ونشرتها في عدد سابق... حرصوا على التهوين من معارضة زملائهم في الإقليم الشمالي (للطريقة الكلية) أو شرشر... والمسند والمسند إليه.

ولكن خطاب السيد مدير المركز الثقافي في حمص يؤكد أن معارضة رجال التعليم في الإقليم الشمالي كانت معارضة جدية... لا سهلة أو هينة.

وإليكم الخطاب:

... وبعد فقد قرأت لك في "آخر ساعة" مقالين: أولهما عن المنتفعين بالكتب المدرسية وثانيهما حول طريقة "شرشر" والمسند والمسند إليه...

فسرني أنك كنت أول كاتب عربي يعرض لمشكلة خطيرة يحاول بعض الناس قصرها على المدرسة، وهي ليست مشكلة مدرسية، وإنما هي مشكلة عربية قومية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.

وقد ساءك على ما يظهر أن تكتشف أن مرسل الرسالة الأولى إليك ليس مفتشاً، بل كان مدرساً في إحدى المدارس، فانبريت في مقالك الثاني ترد على نقاط كثيرة مما ورد في مقالك الأول بعد أن زارك اثنان من كبار المسؤولين في وزارة التربية والتعليم.

لك الحق يا سيدي أن يزعجك كتمان الأول اسمه وشخصه، وما يدرينا أنه يخاف، فقد علمنا أن كل من خالف أولئك المنتفعين مهدد بالطرد أو النقل، ولكني أرجو أن تسمح لي بإبداء رأيي في أن المتحدث عن الحقيقة لا يهمنا بمقدار ما تهمنا الحقيقة نفسها.

لقد كنت مفتشاً للغة العربية في المنطقة الثالثة في وزارة التربية والتعليم في الإقليم الشمالي قبل أن أنقل إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومي وأصبح مديراً للمركز الثقافي العربي في مدينة حمص.

وكان لي شرف حضور المؤتمر الذي عقد في القاهرة عام 1960 للبحث في هذه الطريقة التي يسمونها "تيسير النحو" وكان أولى بها أن تسمى "تعسير النحو" وقد اطلعت في هذا المؤتمر على أمور لا أريد أن أفصلها لك، ولكن أقل ما يقال فيها إنها تريد تحويل العربية إلى العامية، ممهدة إلى ذلك بالقضاء على النحو القديم، وإعطاء قواعد لا تمت إلى العربية ولا إلى روحها ولا إلى فقهها بصلة.

وقد استطعنا في ذلك المؤتمر انتزاع قرار بدعوة لجنة من الجامعات العربية والمجامع اللغوية ووزارة التربية والتعليم للبحث في هذا الموضوع، باعتبار أنها كلها مسؤولة عن اللغة العربية، ولكن القرار أجل، ولم تُدْعَ اللجنة إلا بعد حوالي عام.

وفي تاريخ كتب التيسير وجماعة التيسير عشرات من أمثال هذه التصرفات بتأجيل اللجان أو إلغائها - إن أمكن - فإن اجتمعت فبإلغاء قراراتها، أو الدعوة إلى اجتماع آخر وهكذا دواليك...

وخلال ذلك تظل كتبهم التي أفسدت العربية مفروضة وتظل جيوبهم عامرة... لست أريد أن أطيل عليك، ولكني أنقل إليك حادثة واحدة حدثت في إحدى الجلسات، حين كان أحد الأساتذة يناقش نحوهم ويبين ضلاله فقال له أحد المنتفعين باللغة العربية باللفظ الواحد: "سيبك يا شيخ.. عاوزين نأكل عيش" كأنه لا يمكن أن يأكل لقمة خبز إلا على جثة اللغة العربية.

محمد التابعي

ونشر الأستاذ محمد التابعي في العدد 1392، من مجلة "آخر ساعة" الصادر في 28/ 6/ 1961 ما يأتي:

تلقيت من الأستاذ أحمد الرملي، مدير العلاقات الداخلية بوزارة التربية والتعليم المركزية الخطاب الآتي:

تحية طيبة وبعد...

فقد تتبعنا باهتمام كبير أحاديثكم في مشكلة تدريس القواعد بطريقة "المسند والمسند إليه". والواقع أن المختصين في الوزارة يرقبون مدى جدوى هذه الطريقة منذ زمن بعيد، وقد اتضح لهم عسرها على أذهان التلاميذ وبخاصة في المراحل الأولى من التعليم.

ويسعدنا أن تعلموا أنه تقرير إلغاء هذه الطريقة نهائياً ابتداء من العام الدراسي المقبل، وأن التلاميذ سيعودون لدراسة القواعد بالطريقة المألوفة من قبل، أي بطريقة الفاعل والمفعول، والمبتدأ والخبر ابتداء من العام الدراسي المقبل.

نرجو التكرم بالتنويه في أحاديثكم المقبلة، لما تتمتع كلمتكم بأثر قوي في توجيه الرأي العام وطمأنته.

محمد التابعي.

خطأ كبير الخلط بين الوحدة العربية عموماً والجمهورية العربية المتحدة خصوصاً وبين تصرف بعض المسؤولين والموظفين.

تلك قضية قومية كبرى، وهذا تصرف شخصي فردي.

لست من الذين لا يريدون تيسير القواعد العربية في النحو والإملاء ولكني أريد أن يكون هذا التيسير منسجماً مع روح اللغة العربية ومقوماتها، وألا يخالف أصلاً من أصولها. وأن يسكت عن الخلافات بين المدارس النحوية في مطلع الدراسة لتكون هذه الخلافات موضع بحث المختصين.

عدنا إلى سورية بعد أن تم القضاء على هذا "التيسير" الذي يهدم لغة العرب ويقضي عليها لنمارس علمنا في تدريس العربية كما ينبغي أن تدرس.

وتسألون الآن، وكيف تم هذا النصر، والإقليم المصري يعارضه... وأقول: إن المسألة لم تكن مسألة هذا الإقليم أو ذاك، وإنما كانت مسألة من يدافع عن حق سواء أكان مصرياً أم سورياً. وما أقل من يدافعون عن الحق ويطلبون المنفعة وهم ينحازون إلى الباطل، بل ما أكثر من يوافقون على الباطل طلباً للمنافع الشخصية ونفاقاً لأصحاب النفوذ.

وزارة الثقافة

في أواخر عام 1960 وأوائل عام 1961 جرت مفاوضات بيني وبين وزارة الثقافة، وكان أمينها العام المرحوم الدكتور "يوسف شقرا" طلب مني ترك وزارة التربية والانتقال إلى وزارة الثقافة، ووافقت مبدئياً على الانتقال شريطة أمر واحد هو أن أترفع عندما أصل إلى آخر المرتبة الثانية ـ إلى المرتبة الأولى والمرتبة الممتازة، من دون مساومة.

كانت مرتبتي عالية لا تساعد على تعييني مديراً للمركز الثقافي العربي في حمص، فعينت مديراً للمركز الثقافي العربي في دمشق وندبت إلى المركز الثقافي العربي في حمص.

وبدأت العمل فيه في جد واندفاع لا مثيل لهما، وأعانني في عملي وجود إنسان يقدر الثقافة ويؤمن بالعمل القومي في

مركـز محافظـة حمـص هـو الأخ الأسـتاذ مصـطفى رام حمداني. كان يحضر كل نشاطات المركز ويساهم فيها بنفسه، ويقدم للمركز ولموظفيه كل ما أمكن من دعم وتأييد.

وضعت مخططاً للعمل في المركز الثقافي يتناول المبادئ الآتية:

1ـ المركز الثقافي يجب أن يستقطب كل الحركة الثقافية في المحافظة.

2ـ المركز الثقافي مركز لكل أجيال المثقفين والراغبين في الثقافة في المحافظة كلها لا في المدينة وحدها.

3ـ المركز الثقافي في حمص يجب أن يحيي تراث المدينة الثقافي والأدبي والفني، وأن يخلد ذكرى الأدباء والشعراء والفنانين الذين عاشوا في حمص وأسهموا في نهضتها.

4ـ الثقافة لا ينبغي أن تكون قيوداً مثقلة بل ينبغي أن تكون حرة واسعة تتناول العالم كله شريطة أن تصلنا بأرضنا وعالمنا.

5ـ يمكن أن يستدعي المركز من كل المحافظات رجال الأدب والفن والمسرح وأن يقدموا على مسرح المركز خير ما ينتجونه من ثقافة وأدب وفن.

وهكذا كاد النشاط الثقافي في المركز أن يكون نشاطاً يومياً، واستطاع فعلاً أن يستقطب كل الحركة الثقافية والفنية في البلد. وأقبل الناس على جميع ألوان النشاط إقبالاً منقطع النظير، حتى اضطررنا في كثير من الأحيان إلى الاستعانة بالجيش أو بالشرطة العسكرية أو بالشرطة المدنية لتخفيف الإقبال على المركز وخشينا في كثير من الأحيان على المركز أن ينهار بناؤه من وفرة المقبلين عليه والمشاهدين لنشاطاته، وإلى إغلاق باب المركز بأقفال الحديد حتى نخفف عدد المشتركين في مشاهدة محاضراته أو ندواته أو مسرحياته أو حفلاته الفنية.

لقد أصبح المركز فعلاً بؤرة إشعاع قومي وفكري وثقافي.

كنا في حاجة إلى فرقة مسرحية تكمل نشاط المركز وتقدم أجمل ما كتب الأدباء الحمصيون من مسرحيات،

وأقـدمت علـى تشـكيل فرقـة مسـرحية بقيـادة الأديـب الحمصـي الكـبير الأسـتاذ مـراد السـباعي الـذي قبـل العمـل فيها خدمة لبلده ولفنه.

واجهتنا مشكل العنصر النسائي في المسرحيات. كنت من أشد الناس كرهاً لارتداء الرجال ثياب النساء وتقديم أدوارهن بدلاً عنهن، وما كنت لأوافق على رجل يلبس لباس المرأة، وقمت بعمل: طلبت من ابنتي خزامى، وكانت في حوالي الرابعة عشرة من عمرها أن تنتسب إلى الفرقة المسرحية وأن تقوم بأدوار المرأة في المسرحيات التي تقدّمها هذه الفرقة. ووافقت خزامى، وثار الرجعيون والمحافظون علينا ثورة جامحة، ولكن عملنا هذا لقي استحسان المتحررين والتقدميين، وإذا نحن نتلقى في المركز وخلال شهر أو شهرين طلبات ثماني فتيات للانتساب إلى الفرقة المسرحية والاشتراك في التمثيل. وكانت الفتيات من فضليات أسر المدينة وأحرصهن على مقتضيات الحياة الاجتماعية الرصينة.

وبدأت الفرقة عملها في جد وبلغت مرحلة طيبة من التقدم والتطور، وقدمت مسرحياتها في عدد من المحافظات السورية، ونالت شهرة طيبة في الأوساط الفنية.

شهداء الفكر والعقيدة:

قام المركز بإحياء ذكرى شهداء حمص وأدبائها وشعرائها، وكان من أهم المهرجانات التي قام بها مهرجان شهداء الفكر والعقيدة في حمص وهم الشهداء الشيخ "عبد الحميد الزهراوي ورفيق رزق وسلوم وعزة الجندي"، وكان مهرجاناً رائعاً اشترك فيه عدد من أدباء الجمهورية العربية المتحدة في القاهرة ودمشق وحلب وأقيم في حديقة نادي ضباط حمص وحضره الألوف.

حدث في المهرجان حادث أظن من الضروري أن أذكره:

كلفتني أسر الشهداء أن القي باسمهم كلمتهم، وكتبت الكلمة.

تطفل وضيع:

جاء وزير الثقافة ــ وكان الأستاذ ثابت العريس ــ لزيارتي مع بعض المشرفين على المهرجان وبينهم المرحوم الدكتور يوسف شقرا وبعد خروج الوزير سألني أحد المرافقين:

ـ هل كتبت الكلمة..؟

ـ نعم.

ـ هل من الممكن أن أراها؟...

ـ ولماذا؟..

ـ أريد أن أطمئن.

ـ هل كلفتك المباحث التحقق من الكلمات... ليس لك عندي ما أطلعك عليه.

تستطيع الخروج وطردته.

غضب المرافق كثيراً ولكنه اضطر إلى السكوت والخروج من المركز. وعاد الوزير بعد قليل فأخبرته عما حدث فاستنكر موقف هذا المرافق التطفل.

الأمر الطريف بعد ذلك أن هذا المرافق نفسه، كان أول من انقلب على الوحدة وكتب في هجائها صفحات وصفحات وهو الذي عاش فيها أحلى أيامه وأكثرها دخلاً مادياً وسمعة أدبية.

أن أشد المهاجمين للنظام هم الذين يدعون الحرص عليه. فيسيؤون إليه أكثر من أصحابه.

نسيب عريضة:

ومن هذه المهرجانات كان مهرجان الشاعر الحمصي المغترب المرحوم "نسيب عريضة" الذي تغنى بحجارة حمص السود وحن إليها حنيناً عجيباً، وتمنى أن يدفن فيها، ولكنه دفن غريباً بعيداً عنها في نيويورك.

أبو فراس الحمداني:

وكان كذلك مهرجان الشاعر والفارس العربي أبي فراس الحمداني الذي قتل في ضواحي حمص في قرية تسمى "صدد" وهنالك مكان فيه ركام من الأحجار يسميها أهل المنطقة "مرمى الأمير" أي المكان الذي رمي به أمير بني حمدان.

كما وضع المركز برنامجاً حافلاً لإحياء ذكرى الفحول في حمص لم يتم تنفيذه بسبب قيام الانقلاب وحدوث الانفصال. ولكن المركز استطاع خلال هذه الفترة أن يجمع صور رجالات حمص وأن يكبرها وأن يضعها في صدر قاعته لتذكر أبناء حمص بآبائهم ورجالاتهم العظماء...

صحف حمص لحماية الأرض من الدهان:

حرصت في المركز الثقافي العربي في حمص على جمع المجلات والصحف الحمصية ليكون المركز وسيلة لتوثيق آثار الأدباء والشعراء فيها، واشتريت بعض الصحف والمجلات، وأهدى أصحاب الصحف بعضها إلى المركز. لم يكن ذلك الحرص نابعاً عن أنانية أو إقليمية، ولكنه كان نابعاً من فكر ثقافي متطلع إلى جمع الآثار الأدبية في مدينة اشتهرت بحرصها على الثقافة وكان من أشهر هذه المجلات مجلة أدبية نسائية في العشرينات صدرت في حمص وحاولت في هذه الفترة المظلمة أن تتبنى القضايا النسائية الكبرى وأن تدافع عن المرأة وأن تطالب باشتراكها في الحياة العامة، ولم أكن أنا نفسي أتصور وجود هذه المجلة الحرة في تلك الفترة.

كانت هذه المجلات والصحف موجودة إلى حد بعيد في المركز ولكن مدير المركز السابق عندما قام بدهن المركز وتجديده أمر أن توضع هذه المجلات والصحف في الأرض لتمنع سقوط بعض النقاط من الدهان على الأرض، وحجته في ذلك أن هذه الصحف لا قيمة لها وأنها محلية، وأن

قيمتها الوحيدة في حماية بلاط المركز من الدهان، وهكذا كان، وضاعت ثروة ثقافية محلية من الصعب أن تعاد إلى البلد الذي أنتجها.

وعملت على بناء مركز ثقافي جديد بعد أن ضاق المركز الثقافي القديم عن استيعاب الجماهير المتدفقة، وتقرر بناء المركز ووعد وزير الثقافة بإنهاء البناء خلال سنة واحدة، وكان هذا الوعد في بداية عام 1961.

وحدث الانفصال في 28 أيلول 1961

وتمت الجريمة القومية التي قادت وما تزال تقود إلى كوارث شاملة للأمة العربية جمعاء.

طرفة مضحكة: إسماعيل ياسين يسبب لي مشكلة.

بدأت الصحف بعد الانفصال تهاجم المركز وتهاجم مديره وجرت حوادث مضحكة مبكية في آن واحد: عرض شريط سينمائي عن البحرية في مصر يمثله الممثل الهزلي إسماعيل ياسين، وظهرت صحيفة حمص في اليوم الثاني صباحاً، وفيها مقال على عرض أربعة أنهر، يهاجم المركز الثقافي ومديره لأنهما سمحا بعرض شريط يتحدث عن أمجاد عبد الناصر وأسطوله العظيم.

واتصل رئيس الجمهورية آنذاك بمحافظ حمص يطلب منه التحقيق في الموضوع.

لم أكن قد رأيت الشريط المذكور فطلبت تكوين لجنة لتراه على أن تكون اللجنة مؤلفة من عدة قطاعات في الدولة.

وذهبنا لنرى الشريط.

المهم أن الشريط كان من إنتاج ما قبل ثورة عام 1952 وكانت فيه صورة للملك فاروق. وهي تهتز.

وأصدرت اللجنة بيانها ورفعته إلى المسؤولين، واكتشف الناس جميعاً هذه المهزلة.

في مركز دمشق:

وانتقلت الحملة علي إلى صحف دمشق وكتبت إحدى الصحف عدة مقالات تهاجمني باعتباري أحد الوحدويين، وتحملت كثيراً من الأذى وأخيراً أرغمت على ترك حمص والذهاب إلى دمشق مديراً للمركز الثقافي العربي فيها.

صدر مرسوم إعادتي إلى المركز الثقافي في دمشق وسافرت إلى دمشق لأتولى العمل في المركز.

اتصلت برجال الفكر والثقافة والفن في دمشق وأدهشني أن كثيراً منهم لا يعرفون موقع المركز. وحاولت أن أفعل في دمشق ما فعلته في حمص فيكون المركز الثقافي موئل كل المفكرين والأدباء وأن أستقطب نشاطهم، وأصبح المركز فعلاً بؤرة نشاط فكري وأدبي كبير. حتى أن الموظفين في المركز أزعجتهم وفرة النشاطات، وكتابة عناوين المدعوين إلى حفلات المركز، وقد كانت الدعوات تتجاوز ثلاث حفلات أحياناً في الأسبوع الواحد.

كتابة البطاقات:

كنت ذات يوم في غرفتي في المركز، فدخل علي معاون المدير ورأيت في وجهه علامات الغضب، كانت في يده قائمة أصدقاء المركز وبطاقات الدعوة إلى الحفلة وقال لي:

- لم أعد أستطيع الكتابة. خذ الدعوات واكتبها أنت.

وقلت له في هدوء:

- دع كل شيء، وسأكتبها.

خرج معاون المدير وهو يكلم نفسه، وبدأت فعلاً بكتابة الدعوات ولم أنزعج ولم أتذمر.

مرت خمس عشرة دقيقة أو أقل، وإذا معاون المدير يدخل الغرفة وهو يبكي ويقول:

ـ هات الدعوات، سأكمل كتابتها.

وقلت له:

ـ أنا أكتبها كما طلبت.

وتناول معاون المدير الدعوات ثم مضى إلى غرفته لكتابتها. كان سكوتي على غضبه وقبول كتابة الدعوات أشد عليه من غضبي ورفضي الكتابة.

وحادثة أخرى يمكن أن تذكر:

المكتبة المغلقة:

كان عدد الكتب في المركز نظرياً حوالي عشرين ألف كتاب، ولكن الكتب الموجودة فعلياً لم يكن أكثر من اثني عشر ألفاً.

كانت مكتبة المركز مفتوحة، يأخذ منها الطلاب ما يشاؤون دون تسجيل، وكانت في قاعات المطالعة نفسها،

وبدأ الطلاب والرواد يأخذون ما يريدون من كتب المركز، وطارت خلال سنتين أو ثلاث ثمانية آلاف كتاب أو تزيد، ولو استمرت الحال على ما كانت عليه لنفضنا يدنا من كتب المركز كلها.

كان بعض الرواد يقفون عند نافذة المكتبة ويقف بعضهم في ساحة المركز ويبدأ الرفاق في المكتبة بإرسال الكتب في الهواء إلى رفاقهم.

كنت مرة في زيارة أحد الأصدقاء فقال لي مازحا:

ـ أتشتري كتب المركز؟...

وسألته: ومن أين جاء بها؟...

قال:

ـ باعني بعض الناس هذه الكتب وعرضوا علي أن يأتوني بغيرها إذا أردت.

وأدركت ما في نهب الكتب من خطر على المركز.

لا شك أن المكتبة المفتوحة هي المكتبة المثلى في المجتمعات ولكن مجتمعنا حتى ذلك الحين لم يكن من المجتمعات التي تلائمه المكتبات المفتوحة، فقررت أن

تكون مكتبة المركز مغلقة، لا يحصل فيها القارئ على الكتاب إلا بعد تسجيل طلبه، وقررت نقل المكتبة إلى غرف خاصة بعيدة عن قاعة المطالعة.

طلبت من الإخوان العمل على ذلك وتلكأ الإخوان وانزعجوا فليس من السهل نقل ألوف الكتب إلى غرف خاصة بعيدة عن قاعة المطالعة، ثم أن حمل الكتب إلى القراء بعد إغلاق المكتبة لم يكن أمراً سهلاً عليهم، وأدركت بعد أكثر من أسبوع من الانتظار ترددهم وخشيتهم، وذات صباح خلعت ردائي وصعدت إلى الطابق الثاني، وكانت المكتبة قائمة فيه، كان الإخوان الموظفون يدخنون ويشربون الشاي، وجئت إلى إحدى خزائن الكتب وضممت أكثر من عشرين كتاباً إلى صدري وبدأت بنقلها إلى غرفة جديدة.

رآني الإخوان أعمل فتحمسوا للعمل، وتركوا كاسات الشاي وسجايرهم وشرعوا يعملون كما أعمل.

وما هي إلا أيام معدودات حتى أصبحت المكتبة مغلقة، وحتى بدأت الاستعارة عن طريق تسجيل الطلبات واسترحنا

من السرقة إلى حد بعيد وعادت أعداد الكتب إلى الزيادة حتى تجاوزت في أمد قصير ما كانت عليه قبل السرقات.

وحادثة ثالثة تستحق الذكر:

رفض جاسوس:

جاءني أحد الأصدقاء يقول لي:

ـ لست قادراً على معرفة ما يدور في المركز وخير لك أن تستعين بمن ينقل إليك أخباره ولي هنا صديق عزيز يعرض أن يكون ساعدك في العمل، وهو مستعد لنقل حوادث المركز إليك وقلت له في بساطة:

ـ الأمور التي تجري في المركز نوعان: نوع يصل إلي وأراه بعيني وأعالجه كما أستطيع، ونوع ثان لا يصل إلي ولا أراه، وخير لي أن يجري في الخفاء، ولست أريد الكشف عنه ولا معرفته.

ورفضت طبعاً عرض الصديق، ولكن المهم أن هذا الشخص الذي عرض خدماته كان أكثر الموظفين إساءة إلى المركز وإلى العمل فيه، وقد دعاني تكرر إساءته إلى نقله من المركز بعد أشهر قليلة.

ما من شيء أكثر سخفاً من أن يستعين المدير في عمله بالجواسيس، إنهم هم الذين يفسدون العمل ويسيؤون إلى أصحابه والمسؤولين فيه، ولولا أنهم يشعرون بانحطاطهم عن زملائهم لما طلبوا أن يكونوا جواسيس عليهم.

قضيت في دمشق حوالي سنة وتركت أهلي في حمص وابنتي في مدرسة داخلية حرصاً على إتمام دراستها، واستطعت في هذه السنة أن أقوم بنشاط ثقافي ممتاز، في المركز وأن أعقد أواصر الصداقة والعمل مع عدد كبير من النوادي والفنانين.

لوحة تشكيلية مقلوبة:

ذات يوم أرسلت الحكومة البريطانية معرضاً لإقامته في المركز وكان يضم لوحات كبيرة من الرسوم الحديثة، وأرسلت مع المعرض ثلاثة فنانين للإشراف على إقامته. علقوا اللوحات في قاعة المعارض وافتتح المعرض وأبدى كثير من الفنانين إعجابهم باللوحات.

في اليوم الثاني صباحاً زارني الفنان المرحوم "ميشيل كرشة" بعد أن زار المعرض البريطاني، وقال لي: إن اللوحة

الأولى مقلوبة رأساً على عقب. ولم أصدق ذلك. أيمكن أن يخطئ ثلاثة فنانين في تركيب لوحة وهم الذين أوفدتهم حكومتهم للإشراف على المعرض وإقامته، واتصلت بعد إصرار الفنان "كرشة" بالسفارة البريطانية، ونقلت لهم رأي الفنان، وكان الرد المبدئي أن هذا الأمر مستحيل ومع ذلك فسيرسلون الفنانين الثلاثة للتأكد من الموضوع، وجاء الفنانون الثلاثة ورأوا الفنان كرشة ورأوا اللوحة وأدركوا أنها مقلوبة وأعادوها إلى وضعها وقلبوها ليعيدوا رأسها إلى فوق وقدميها إلى تحت.

ومن ذلك الحين وأنا أتعجب من هذا الفن الذي لا يعرف وضع اللوحة ولا يفرق بين رأسها وقدمها إن كان طبيعياً أو مقلوباً.

الأرسوزي يهاجم الحكم في المركز الثقافي:

دعوت مرة المرحوم الأستاذ "زكي الأرسوزي" لإلقاء محاضرة في المركز، كنت أعرف آراء الأستاذ وعنفه في مهاجمة خصومه ومع ذلك فقد دعوته، وجاء الأستاذ وتحدث عن الوضع السياسي ثم هاجم هجوماً قاسياً الانتخابات التي

ستجري في البلاد وذكر أمثلة عن شراء المرشحين لأصوات الناخبين، وكان الهجوم عنيفاً جداً.

وشعرت أن المركز سيتعرض لكارثة، ولم يكد الأستاذ ينتهي من محاضرته حتى صعدت المنبر وألقيت كلمة قصيرة قلت فيها: الكلام الذي قاله الأستاذ ينطبق أو أنه حدث فعلاً في العهود السابقة، أما الآن وفي الانتخابات القادمة فسيستدرك العهد كل الأخطاء الماضية وستكون الانتخابات حرة ديمقراطية.

وانتهت الأزمة بذلك ولم يتعرض المركز لضرر ولا لتحقيق.

جاء إلى وزارة الثقافة وزير وأديب هو الدكتور عبد السلام العجيلي وطلبت منه أن أعود إلى حمص، فأعادني إليها.

عودة قصيرة إلى حمص:

عدت إلى بلدي لأستأنف ما كنت أفعله، ولكن الزمان تغير والعهد تبدل، والاستجابة لمطالب المركز خفت، ولذلك كان العمل أكثر مشقة واقل مردوداً.

في 8 آذار 1963 حدثت ثورة، وكان شعارها إعادة الوحدة بين سورية ومصر، وثارت حماسة الجماهير العربية مرة أخرى، وذلك المركز جهوده لإحياء أمل الأمة العربية في إعادة الوحدة، وجرت حفلات كثيرة تبشر بالوحدة وتدعو إليها.

في السجن:

ودارت الأيام وحدثت حركة تموز بقيادة "جاسم علوان" وضاق بعض الناس بنشاط المركز القومي، فاعتقلت وذهبوا بي إلى السجن لأقضي فيه ثلاثة أشهر.

كانت حياتي في السجن طبيعية جداً، ألقيت أول ما دخلت السجن البولوني في حمص في زنزانة، والسجن البولوني في حمص من أرهب السجون في العالم، أقيم لعقوبة الجنود البولونيين الذين خدموا في جيوش الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الثانية، فلما انتهت الحرب وغادرتنا جيوش الحلفاء، ورثنا منهم هذا السجن الرهيب.

كان الوقت صيفاً وقضيت في الزنزانة حوالي عشرة أيام ثم نقلوني إلى مهجع عام. كنا نجتمع في المهجع أكثر

من عشرين رجلاً لننام على الأرض، وكنا لا نستطيع أن ننام مستلقين على ظهورنا فننام على جنوبنا لكي تكفينا أرض الغرفة.

كان معنا في المهجع كثيرون أذكر منهم: حكمة الداية قائد موقع حلب الذي أصر على بقاء الوحدة، ثم حدث انقلاب في قيادته أطاح به، وكان معنا الأستاذ المرحوم "راتب الحسامي" نائب رئيس مجلس الأمة سابقاً. وعبد المجيد الطرابلسي وضياء الملوحي وغصوب الرفاعي وغيرهم كثيرون.

ذات يوم جاء الحرس برجل بدوي وألقوه عندنا، وكان الرجل البدوي مثخناً بالجراح ورأيت أصدقائي في الغرفة يتهامسون، وعرفت منهم أن هذا البدوي رغم جراحه مدسوس علينا لينقل أخبارنا. وأن علينا ألا نتكلم في أمور السياسة والحكم، وعندما سألتهم كيف يكون هذا الجريح جاسوساً، فقالوا: إن من وسائل الإرهاب أن يلجأ إلى هذه الوسائل لاكتشاف المعارضين.

كنا نخرج عند الظهر للطعام، وكان الطعام في باحة السجن وتحيط بالباحة المراحيض والمغاسل، ومع ذلك فقد كان يسرنا أن نخرج إلى الباحة لنتمتع بشيء من الشمس والهواء الطلق رغم كل الروائح الكريهة التي تنبعث من المراحيض، وكان الأكل مكوناً من البرغل وبقايا من اللحم، وكنا نأكل حتى نشبع، ثم سمحوا لنا بأن يأتينا غداء من بيوتنا، فصرنا نأكل في شهية، ثم أنشأنا دوراً يرسل فيه كل بيت طعاماً يكفي المساجين، يوماً من الأيام، وارتفع مستوى الطعام، وصرنا نخفف من الأكل حتى لا نسمن.

التعذيب في السجن:

كان إلى جوار الغرفة التي نعتقل فيها غرفة تمارس فيها ألوان التعذيب، وكان معنا من يحقق معهم ويعذبون، وكانوا يختارون لتعذيبهم وقت الغداء، وكثيراً ما كنا نكف عن الطعام ونظن اللقم التي تناولناها وقد تحولت إلى حراب تمزق أمعاءنا عندما نسمع الصرخات والزعقات وأصوات المعذبين تخرج من أفواههم، وكأنها حشرجة حيوانات تقتل أو تسلخ جلودها وهي حية، كنا عندئذ

نكف عن الطعام ونظل جائعين وبعد ساعة أو ساعتين يعود إلينا المعذب، وهو حطام يشبه شيئاً ما لا إنساناً.

كانت هذه التجربة أقسى ما مر بنا من تجارب، وكان كل واحد وهو يسمع أصوات المعذبين، لا يدري متى يأتي دوره ليعذب كما يعذب زملاؤه.

بعد شهر أو أكثر قضيناه في السجن البولوني نقلونا إلى السجن المدني الجديد في طريق حماة، جاؤوا بسيارات صعدنا إليها زرافات ثم سارت السيارات عبر شوارع حمص. إن من أغلى ذكريات الإنسان أن يتذكر كيف ينتقل من سجنه إلى سجن آخر، وهو يمر بشوارع مدينته، ويرى الناس في طريقه، بل ربما رأى بعض من يعرفه.. إذن فالحياة ما تزال مستمرة ولا يزال الناس أحراراً، وإن كان هو وحده المقيد السجين.

أصبت الحياة في السجن المدني أقرب إلى العقل، وأنفع للجسم من الحياة في السجن البولوني.

كانت فيه قاعات كبيرة ومراحيض حديثة ومغاسل جيدة وسرر عالية وفرش حسنة وأغطية مناسبة، وعشنا في قاعتنا قريبين من عيشة البشر.

مدير المركز الثقافي في السجن المركزي:

كنت قد بدأت بجلب بعض الكتب من المركز الثقافي، ومن البيت لأوزعها على من يريد أن يقرأ من السجناء، وكان الكثيرون يقرؤون في شغف واهتمام ورغبة، وصاروا يطلقون علي لقب "مدير المركز الثقافي في السجن المركزي".

المساجين والتدخين:

كنت لا أدخن، ولكن الدخان أصبح مشكلة المدخنين من المساجين، كانوا يتلهفون إلى السجاير وينتظرونها كما تنتظر الأرض العطشى هطول المطر المنقذ. وكنت أرى كبار الضباط من المساجين يؤدون التحية لجندي من الحرس ويقولون له:

ـ سيدي المجند الركن، أرجو أن تسمح لي بعلبة دخان، وكان المجند يسر من هذا الثناء وربما أعطى الضابط علبة دخان، وتصبح العلبة كنزاً ثميناً يحرص عليه صاحبه ولا يعطي منه أصحابه إلا في تقتير شديد.

أنواع المساجين:

كان في السجن أنواع من الناس:

نوع يخاف من السجن خوفاً شديداً، ويرى أنه يجب أن يسلك كل ألوان السلوك ليتخلص منه في أسرع وقت ويستعيد حريته.

ونوع ثان لا يهمه أن يسجن ولا أن يعذب فهو مستعد لتحمل كل أنواع الإرهاب، ويتعمد في كثير من الأحيان إزعاج السجانين وتحديهم.

ونوع ثالث، وهو أكثر المساجين، يسلك سلوكاً عادياً، ويرى في السجن شراً لابد منه فهو صابر ساكت لا يخاف كثيراً ولا يتحدى، ويمضي في حياته في السجن كأنه يمضي في حياته خارج السجن.

من النوع الأول كان أحد المعتقلين من رجال المال لا من رجال السياسة، كان مرابياً كبيراً يقرض المال للمحتاجين وخاصة للفلاحين، وقد استولى على قسم كبير من أراضيهم عندما عجزوا عن سداد ديونهم ورباها الباهظ.

أضاحيك في السجن:

كان له أهل وإخوان في البرازيل، كانت لهم علاقة بحاكم سورية في ذلك العهد، وظن أنه يستطيع الخروج من سجنه إذا أرسل إلى حاكم سورية كتاباً يذكره فيه بصداقة أهله وإخوانه له، وكتب الرسالة وعندما عرضها علينا خوفه أصدقاؤه من إرسال الرسالة وقالوا له: إن الحرس إذا علموا برسالته فسوف يهينونه ويزعجونه، ويسألونه: كيف يرسل رسائل من السجن دون أن يعرفوا بها ويسمحوا بإرسالها؟ وظل الأصدقاء يخوفونه فإذا هو يهرع إلى المرحاض ويمزق الرسالة ويلقيها فيه ويسيل الماء فإذا لم تختف قصاصات الورق كلها جعل يخفيها بيديه في المرحاض.

ذات يوم قص علينا القصة التالية:

كان لرجل جمل وحمار، وكان ينقل الناس بين المدن، وكان الرجل مكارياً، وشاخ الجمل ومات وانزعج الرجل فقد كان يعذب الجمل كثيراً، ورآه في المنام فسأله أن يعفو عنه وعدد إساءاته إليه، فقال الجمل: أنا أعفو عنك وعما ظلمتني فيه من جوع وعطش وتعب، ولكني لا أعفو عن شيء واحد هو أنك ربطتني طول حياتي بذنب حمار.

وقال الخبثاء من الأصدقاء: هذه حكاية لها مغزاها، هذه غمزة سياسية لها ما وراءها.

وخاف الرجل جداً ورجا أن ننسى الحكاية.

ومن النوع الثاني رجل شديد مفتول العضلات كان يجلس في سرير أو على الأرض فإذا مر به مسؤول من الدولة أو من السجن لم يتحرك من مكانه ولم يرد عليه سلامه، وكانوا يطلبون منه أن يقوم لهم أو أن يسلم عليهم فيرد عليهم في خشونة: ولماذا أقول لكم وأسلم عليكم؟... إلا لأنكم تظلمونني وتلقون بي في السجن؟ وكانوا يزيدون من ظلمه وينقلونه إلى غرفة التعذيب ويدعونه على الأرض دون غطاء ولا وطاء، فلا يبالي بكل ذلك، ويعود إلينا بعد أيام ليستأنف تحديه وشدته.

ولم يتغير هذا الرجل وأمثاله طوال إقامته في السجن، وكان يلقي علينا دروساً في المقاومة والتحدي.

أما النوع الثالث، وهو أكثر أنواع المساجين عدداً، فكان يعيش لا خائفاً ولا متحدياً كان يرى السجن قدراً مقدوراً، لابد منه، فهو صابر مترقب يعد أيامه في هدوء فإذا

وصلت الأيام إلى الستين بدأ يعد عداً معاكساً، وكان من هذا النوع أناس ألفوا السجن وألفهم، يقولون لنا: قدرنا أن نبقى في السجن أربعة أشهر، فنحن إذا قضينا شهرين بدأنا نعد الأيام عداً معاكساً لأننا سنخرج من السجن بعد شهرين آخرين.

السجن والعقيدة:

لقد شعرت خلال إقامتي في السجن أن السجن لا يغير عقائد الناس ولا قناعاتهم وأنهم يخرجون منه وهم أكثر تمسكاً بعقائدهم وحرصاً على قناعاتهم، وكنت أتساءل: لماذا السجن إذن؟... لعل الذين يريدون إرهاب الناس بسجنهم، لأنهم في السلطة، لم يذوقوا طعم السجون، ولو ذاقوها لما جعلوا من السجون أداة لإرهاب الناس وسحقهم ووسيلة إلى تبديل عقائدهم وقناعاتهم، بل لعلهم ذاقوا عذاب السجون ثم لم يتعظوا.

انقلاب في السجن:

حدث لي في السجن حادث غريب، يدل على أن أعصاب السجان أكثر عطباً وتوتراً من أعصاب السجين.

كان لأم منقذ زوجتي أخت فقيرة وكان لها ولد يتلقى العلم في إحدى المدارس الخاصة وكنت قد أدخلته في هذه المدرسة مجاناً، لأنه لا يستطيع أداء أقساطها، واقتربت السنة الثانية من دراسته، وخافت أمه ألا تقبله المدرسة مجاناً سنة أخرى، جاءت لزيارتي مع زوجتي وحدثتني حديثه فسألتها في عفوية:

ـ متى تفتح المدرسة أبوابها؟.. قالت في 9 تشرين الأول قلت: نحن الآن في شهر آب، وإلى 9 تشرين يفرجها الله، واطمأنت أم الولد وسكتت.

سمع الحديث أحد الجواسيس، وفهم من مجراه أني أحدد تشرين الأول للقيام بانقلاب يطيح بالدولة، وأنا في السجن، ونقل هذا الفهم إلى المباحث، واستدعت المباحث زوجتي للتحقيق معها، قال لها المحقق:

ـ هل كنت في السجن في زيارة الأستاذ؟...

قالت نعم زرته:

ـ وماذا جرى من حديث...

ـ حديث عادي.

ـ لقد حدد يوماً معيناً في تشرين.

ـ أختي حدثته عن ولدها وعن قبوله في مدرسة خاصة.

ـ قولي ما تعرفين، فالأستاذ أستاذنا ونحن نريد مصلحته وخيره.

ـ وهل جاء الشر إلا من تلامذته؟

واستمر التحقيق طويلاً وفهم المحققون أخيراً أن القضية لا تتعدى قبول طالب في المدرسة، وأنها لا تحدد موعداً للقيام بانقلاب فأغلقوا التحقيق.

كنت في السجن، لم أعلم بشيء عن هذا الموضوع ولم يحدثني عنه أحد.

ذات يوم طلبني أحد رجال المباحث، قال:

ـ نحن نريد إخراجك من السجن، فهل تريد أن تخرج الليلة أو تخرج غداً صباحاً... كنا في منتصف الليل.

ـ قلت:

بل أخرج الليلة فربما عدلتم عن رأيكم غداً صباحاً.

وحدثني المحقق وكان أحد طلابي حديثاً سياسياً

طويلاً وطلب مني أن أكون قومياً عربياً وأن أقرَّ رأي الدولة في كل ما تعمله وقفز فجأة وطلب مني عدم تأييد الأكراد... من أين اخترع الأكراد؟

سكت طبعاً وظن سكوتي قبولاً فأشار علي بتدبير أغراضي لأخرج.

وطلب بعدي الأخ العميد حكمة الداية وأخبره أنه سيطلق سراحه، ونصحه كما نصحني.

طلبنا سيارة لتأخذنا إلى البيت من مكتب سيارات الخدمة ووقفنا أنا والأستاذ حكمة على باب السجن، وحولنا عدد كبير من رجال الأمن.

نموذج من شعبي الوحدوي:

جاء صاحب سيارة لا أعرفه ووقف أمام باب السجن ولم يكد يراني حتى صاح مسروراً مرحباً:

ـ أضاءت المدينة يا أستاذ. الحمد لله على سلامتك، حمص كلها تنتظر إطلاق سلاحك.

كان يقول ذلك في صوت عال أمام جموع رجال المباحث، وهممت بحمل حقيبتي، فأسرع يحملها عني،

وعندما عرف أن الأستاذ الداية سيأتي معي زاد ترحيبه وفرحه.

جلست قرب السائق وجلس الأخ الداية في المقعد الخلفي، كانت الساعة قد تجاوزت قليلاً منتصف الليل.

حدثني السائق في الطريق عن حمص وما تعانيه من إرهاب وسجن واعتقال، وعن صمودها وحرصها على عودة الوحدة.

وصلنا إلى البيت ومددت يدي لأخرج له أجره فأقسم بالطلاق أنه لا يأخذ قرشاً واحداً. وإن هذه الرحلة مصدر سرور وفخر له، وعندما أوصل الأستاذ الداية إلى بيته لم يأخذ منه أجراً.

حادثة صغيرة ولكنها ذات دلالة كبيرة.

ما أعظم شعبنا وما أكثر وعيه وإدراكه.

العودة إلى دمشق:

انتهت أشهر السجن، وفي اليوم الثاني صباحاً كنت في المركز الثقافي العربي أقوم بعملي كأن شيئاً لم يحدث.

واتصلت بي وزارة الثقافة، وقد علمت بإطلاق سراحي قال الأمين العام:

ـ يستحيل أن تبقى في حمص فلن ترتاح وستلاحقك الإشاعات والإزعاجات كل يوم، وخير لك أن تأتي إلى دمشق وتعود إلى المركز الثقافي فيها.

وصدر مرة ثانية مرسوم إنهاء عملي في حمص وإعادتي إلى دمشق.

قال لي وزير الثقافة وكان الدكتور سامي الجندي آنئذ: عليك أن تزور الدكتور نور الدين الأتاسي لبحث قضية إعادتك إلى دمشق، وكان الأتاسي وزيراً للداخلية، وذهبت إلى الدكتور نور الدين فاستقبلني استقبالاً حسناً، وقال: لا مانع لدي من انتقالك إلى دمشق واتصل بوزير الثقافة لإخباره عن موافقته.

تابعت العمل في مركز دمشق في أواخر عام 1963 وفي عام 1964 نقلت أهلي وبيتي من حمص إلى دمشق.

في باكستان والهند:

في عام 1965 أوفدتني وزارة الثقافة إلى الهند والباكستان مع المرحوم الأستاذ صدقي إسماعيل والأخ الدكتور حسام الخطيب، وكانت رحلة ممتازة أطلعتني على حيوات الشعوب وعاداتها وبلادها وجبالها وآثارها، ولا يمكن أن أنسى ليلة قضيناها على سفوح جبال هملايا وقلت يومئذ هذه الكلمة:

"يمكن أن يعبد الله في مكان أكثر قدسية من هذا المكان، ولكنه لا يمكن أن يعبد في مكان أكثر جمالاً من هذا المكان".

ومن أشد ما أثر بي في الهند منظر "تاج محل" في أكرا، لقد رأيت أجمل وأرشق ما يمكن لزوج أن يخلد به زوجته وحبيبته الميتة، لقد رأيت كثيراً من آثار العالم وتأثرت بها ولكني لم أر أحلى من تاج محل ولا أكثر رشاقة ولم أتأثر بأثر أكثر من تأثري به.

ولقد رأيت في الهند والباكستان فقراً يفقأ العيون، شعب كبير عظيم يعيش عيشة بائسة شقية لا يصبر عليها إنسان.

في "نيودلهي" ذهبنا إلى صلاة الجمعة، ورأينا عند دخولنا وخروجنا أفواج المتسولين والشحاذين يجلسون على طرفي الدرج المؤدي إلى المسجد، وهم يكشفون في بساطة عن عاهاتهم، وأشد ما أزعجنا منهم منظر إنسان مصاب بفتق كبير أزرق، وهو يكشف عن بطنه ويبرز فتقه ليتسول به، والذباب يحوم ثم يسقط على الفتق.

ما أحوج الهند والباكستان إلى ثورة تنقذهما من الشقاء والبؤس والفقر والجهل، ثورة مثل ثورة الاتحاد السوفييتي أو الصين[1].

في مؤتمر الكتاب في آسيا وأفريقيا التقيت بعدد من مثلي شرقي الباكستان، وحدثوني في صراحة عما تقاسيه الباكستان الشرقية من تحكم الباكستان الغربية وأكدوا لي أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر، وقد حدث فعلاً بعد سنوات عشر أن استقلت الباكستان الشرقية وأطلق على دولتها اسم "بانغلاديش".

---

[1] فصلت الزيارة في كتابي (في أرجاء العالم).

لقد كان كلام الكتاب تصويراً سابقاً لواقع سوف يحدث.

في التراث العربي:

في عام 1965 تم نقلي من مدير المركز الثقافي العربي في دمشق إلى مدير التراث العربي في وزارة الثقافة.

بذلت كل ما استطعت لأقوم بواجبي في إحياء التراث العربي، وقمت شخصياً بنشر بعض الكتب التراثية واعتبرت عملي هذا من عملي في المديرية فلم أتقاض على الكتب التي نشرتها أجراً وهي:

ديوان عروة بن الورد.

اللاميتان لامية العرب ولامية العجم مع شرحهما.

المنصفات وهي الأشعار التي قالها العرب في إنصاف أعدائهم في الحرب.

كانت مديرية التراث تتبع في النشر مديرية الترجمة والتأليف والنشر في الوزارة وقدمت للمديرية كتاب "تثبيت دلائل النبوة" للقاضي الهمذاني وتحقيق د. عبد الكريم

عثمان فلم توافق مديرية الترجمة على نشره، وعندما سألت عن السبب قالت: إن هذا الكتاب يثير قضايا طائفية فهو يذكر أن السيد المسيح ليس ابن الله. وقلت إذا كان هذا السبب هو المانع فعليكم أن تمنعوا نشر القرآن، والمسلمون جميعاً يعتقدون أن السيد المسيح رسول الله وكلمته وليس ابنه.

منذ تلك الحادثة عرفت أن مديرية التأليف والترجمة والنشر في الوزارة تسيطر عليها فئة ذات أفق ضيق وسعيت لفصل مديرية التراث عنها ولجعل هذه المديرية هي صاحبة الرأي الأول والأخير في نشر ما تريد. ووافق وزير الثقافة آنذاك على الفصل.

وقد كان لهذا الصدام الأول بين المديريتين آثار كبيرة ما أزال أحمل آلامها وأحقادها فوق ظهري. ولا أبالي.

أنشئت في هذه الفترة وزارة التعليم العالي، وفيها مديرية للكتب، وحاول بعض الموظفين في وزارة الثقافية إلغاء مديرية التراث باعتبار أن اختصاصها انتقل إلى وزارة التعليم العالي، ووضعوا لوزارة الثقافة مشروعاً جديداً حذفوا منه مديرية التراث.

وحدث أن وزارة جديدة قامت في ذلك الوقت ولم يكن المشروع وقع، فأرسلوا ليلاً إلى الوزير القديم المشروع ليوقعه بتاريخ سابق.

في اليوم الثاني جاءنا الوزير الجديد وذهبنا للسلام عليه وذكرت له ما حدث. وأن وزارة التعليم العالي لا تهتم بنشر التراث، وأن ما جرى كان حرباً عليه، ووعد الوزير بإعادة التراث، وحدث فعلاً بعد ذلك أن أعيدت مديرية التراث، ولكني كنت قد نقلت إلى مديرية المراكز الثقافية ثم أضيفت المكتبات العامة إلى المراكز الثقافية.

في القصر الجمهوري

عندما قبلت النقل إلى وزارة الثقافة كان لي شرط واحد هو ألا يقف ترفيعي في الوزارة ووعدت بذلك فانتقلت. ولكن الذي حدث أني بلغت الدرجة الأولى والمرتبة الأولى في الوزارة ثم وقفت ست سنين دون ترفيع وكنت كلما طالبت بالترفيع احتج أصحاب السلطان بملاك الوزارة فأسكت مرغماً.

في عام 1970 علم الدكتور نور الدين الأتاسي وكان رئيس الدولة عن طريق صديق بوضعي الوظيفي ووافق على ترفيعي في أية وظيفة في الدولة. وذكر له وزير الثقافة آنذاك أنه مستعد لتعييني معاون وزير لأترفع إلى المرتبة الممتازة، وكان الوزير طالباً من طلابي سابقاً. وقال لي: اطمئن فسوف تترفع، وطلب مني أن أسافر إلى القاهرة لافتتاح معرض الكتاب العربي.

في تلك السنة السوداء وفي 8 كانون الثاني منها كنت قد فقدت ابنتي، كانت الكارثة أكبر من أن احتملها، فاعتذرت للوزير عن عدم حضور المعرض وترك الأهل في غمرة الفاجعة، فأصر على سفري وقال لي: إن مرسوم ترفيعي سيوقع خلال غيابي في القاهرة.

سافرت على هذا الوعد وانتظرت إخباري بالترفيع فلم يصلني شيء وعندما عدت إلى دمشق بعد حوالي خمسة عشر يوماً لم أجد شيئاً، ثم عين أحد الزملاء معاون وزير لأنه من بلد الوزير، وكان لي مع الوزير موقف مزعج شديد.

وعلم رئيس الدولة بذلك فنقلني مستشاراً في القصر الجمهوري. وطلب وزير الثقافة ندبي لوزارة الثقافة لإدارة المراكز الثقافية والمكتبات، وكنت قد داومت عدة أيام في القصر، فلبى طلبه وعدت إلى وزارة الثقافة بعد أن تم ترفيعي، وظللت أتقاضى راتبي من القصر الجمهوري حتى أحلت على التقاعد عام 1977 في أوله.

تلك هي حياتي في الوظيفة: حياة عادية ليس فيها مغامرات ولا بطولات بذل فيها إنسان ما يستطيع من جهد

فترة الوظيفة الطويلة التي أوشكت أن تمتد أربعين سنة كاملة.

كانت حياة عبودية، رغم ما خالطها من تحرر وانطلاق في بعض الأحيان، ولقد قلت وأعيد القول الآن:

"في اليوم الذي اخترنا فيه الوظيفة اخترنا معها العبودية".

وليُنقض من يشاء هذا الواقع المرير إن استطاع، ولن يستطيع نقضه فعلاً وإن استطاع أن ينقضه قولاً.

لم تستمر حياتي في القصر الجمهوري طويلاً وكنت فيه مستشاراً بلا استشارة وفي أول كانون الثاني عام 1977 أحلت إلى التقاعد فتحررت.

ما أجمل الحياة الحرة، وما أقبح الوظيفة العبدة.

العمرة

قمت بأداء العمرة عام 1984 بدعوة من ولدي منقذ، وقد تأثرت دينياً وعاطفياً بهذه العمرة، وكتبت كلمة عن انطباعاتي فيها نشرتها المجلة العربية في السعودية وعنوانها "تهليلة جديدة لبيت الله الحرام". وها هي ذي:

"عبد المعين الملوحي ـ من ألمع أدباء سورية، تجاوز السبعين، وما زال يمارس الإبداع والبحث والترجمة عشرات الكتب الأدبية، والدواوين الشعرية المطبوعة، وأكثر من مائة مخطوط.

وإذا كان الملوحي في فتوته وشبابه وكهولته متهماً بشكه، وكفره أحياناً ـ وبخاصة بعد أن فقد ابنته وزوجته (بهيرة) ـ فإنه عاد في أخريات أيامه مؤمناً صادق الإيمان.

وقد خص المجلة بهذه المقالة الجميلة التي تفيض إيماناً، والتي كتبها بعد تطوافه في البيت العتيق.

(المجلة العربية)

سألني في شيء من الاستغراب، ورآني أعد حقائبي للسفر إلى السعودية، وإلى مكة المكرمة لأقوم بالعمرة:

أحقاً ستسافر لأداء العمرة؟

أحقاً ستذهب إلى السعودية؟

وقلت له في هدوء:

نعم يا صديقي. سأسافر إلى السعودية، وسأقوم بأداء العمرة.

أريد أولاً أن أقضي منسكاً من مناسك الإسلام. وأريد ثانياً أن أرى وألمس الأرض التي أنبتتني رمالها.

إني أشعر في أعماق نفسي أن دمي من تلك الرمال، من جبل أُحد، من ساحة بدر، من غار حراء، من ماء زمزم، كل أولئك اختلطت فكونت هذا الإنسان الذي يسمى عبد المعين.

سكت صاحبي، لقد أحس هو أيضاً أنه عربي صيغت جبلته من تلك الرمال والجبال والأمواه.

وسافرت إلى مكة المكرمة[1].

كنا في السيارة من جدة إلى مكة المكرمة، وكنت أحاول في سذاجة أن أطوي الأرض طياً، فلا أستطيع ــ وأطلت علينا مكة المكرمة ـ فصرت أحاول في سذاجة أن أخترق بعيني البنايات العالية والشوارع المزدحمة وأن أرى جدران البيت الحرام، وأن ألمس ستائر الكعبة المشرفة فلا أستطيع.

ما أصعب أن يسبقك قلبك إلى بيت الحبة، ويبقى جسدك أسير اللحم والعظم!!

كدت أحترق لهفة وتطلعاً، وما فائدة أن تحترق قبل أن تصل؟ ووصلنا، وكبرنا الله تكبيراً:

الله أكبر... الله أكبر

---

(1) أرجو ملاحظة أني استعمل فعل (رأى) بمعنى الرؤية القلبية لا البصرية، بمعنى علـم لا بمعنى شاهد، وأني أستعمل فعل (سمع) بمعنى قرأ وعرف مجازاً.

إنها الكلمات التي تنير طريقنا إلى الله، إلى الحق والقوة.

كان حرم مكة يتلألأ.

ها هنا كانت أصنام العرب فدمرناها تدميراً.

ها هنا كانت بئر زمزم تشح وتكاد تفيض فحفرناها فتدفقت.

ها هنا كانت الكعبة تكاد تتداعى، فحملنا إليها الأحجار والطين وأعدنا بناءها من جديد.

ها هنا كانت الكعبة عارية فنسجنا لها رداءها من عيوننا وكسوناها.

هنا هنا كان الرسول العربي محمد ﷺ يسجد لله، فكان الكفار يزاحمونه ويزعجونه ويلقون عليه ـ وهو ساجد ـ التراب والشوك فأزلنا عنه ما رماه به الكفار، وانتصرنا عليهم، وتمت كلمة ربنا.

وطفنا بالكعبة المشرفة.

ما أكثر الناس الذين طافوا بها قبلنا والذين يطوفون الآن بها معنا، إنك تشعر وأنت بين الناس في هذا الزحام أنك

أصبحت أشد قوة، وأمضى عزيمة، وأكثر ارتباطاً بالإنسانية.

وتم الطواف، ومضينا للسعي بين الصفا والمروة. من أين جاءتني هذه القوة الدافقة؟ كنت أسير في بطء، وأعتمد على عكاز، كنت أعاني بقايا الشلل.

وأما الآن فأنا أطير طيراناً، أجري جرياً، أسبق الشباب، وأسعى وأسعى في فرح ونشاط، وأردد كلمات الله، وأدعية العمرة، وأمزج الدعوات القديمة بالأدعية يفيض بها جناني، فتسيل على لساني.. لكأنها ينبوع ماء جف ذات يوم وها هو ذا الآن يعود غزيراً ليتدفق من جديد..

أديت صلاتي حول الكعبة.

رأيت الناس يتحلقون حول الكعبة حلقات حلقات. يؤدون صلواتهم، وفجأة خيل إليه أن الحلقات تنداح وتتسع حتى تعم الأرض جميعاً.

"ما أحلى أن ترى الناس في كل أرجاء الأرض يصلون لله وحده، ويؤمنون به وحده، ويهتفون من قلوبهم هذا الهتاف الجليل!! الله أكبر... الله أكبر.

وانتهت الصلاة، وانتهى الطواف والسعي، ومضينا إلى بطحاء مكة.

ها هنا رأيت عمار بن ياسر يعذب عذاباً يهد الجبال، ولكنهن لا يهد الرجال.

ها هنا رأيت كفار قريش يغطونه في الماء ليفتنوه عن الإسلام فيزيدونه إيماناً.

ها هنا سمعت رسول الله ﷺ ينظر إلى السماء ثم إلى الأرض ويقول: "صبراً آل ياسر.. ابشروا فإن موعدكم الجنة".

ها هنا رأيت (ياسراً) يقبل على الموت كأنه مقبل على بستان.

ها هنا رأيت أمه (سمية) تقبل على الموت كأنها تذهب إلى عرس.

أديت صلاة الفجر في الحرم، وكان المسلمون الذين يؤدونها في مثل عدد الذين أدوا صلاة المغرب بالأمس، بل ربما كانوا أكثر عدداً.

ما أبعد الذين يتهمون المسلمين بالكسل عن الصواب، وما أنآهم عن الحق.

إن هؤلاء الذين يستيقظون عند الفجر، فيهجرون أسرّتهم ويتوضؤون بالماء، ويسرعون إلى المسجد، فيؤدون الصلاة: يسجدون في خشوع، ويركعون في خشوع، ثم يمضون إلى أعمالهم في نشاط وسعادة لقد أدوا حق ربهم عليهم ومضوا ليؤدوا حق الحياة.

وتعالى صوت المؤذن.

سمعت بلالاً يرسل صوته العذب القوي فيصبه دماً في قلب الليل فيطلع الفجر أحمر زاهياً يلبي نداءه.

ليس المسلمون كسالى، وليسوا ممن يرضون الذل والهوان.

من هذا الحرم، ومن حواليه، خرجوا إلى العالم كله ليسمعوه كلمة الله: لا إله إلا الله. وقد سمع العالم كلمة الله، ولباها في كل بقعة من بقاع الأرض.

والمسلمون اليوم في حاجة إلى أمثال أولئك الرجال الذين خرجوا من جزيرة العرب، فأترعوا أرجاء العالم إيماناً ونوراً.

درس في الحرم:

إنه درس لا أنساه.

كنت في الحرم، وإلى جانبي ولدي، ودنا منا شيخ وقور من بخارى، أو مما حواليها، في السبعين من عمره أو تزيد، كان أبيض اللحية، أبيض شعر الرأس، ولكن كل ما فيه يوحي إليك أنه صلب العود. دنا منا فقال السلام عليكم.

وقلنا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

وسألنا: من أين الإخوان؟

وبادر ولدي فأجابه:

من سورية.

ورأيت وجه الشيخ الوقور يتجهم وقال في شيء من الغضب:

ولماذا تقول سورية، ولا تقول الشام؟ لماذا تأخذون الصغير وتتركون الكبير؟

وخجلت حقاً: كيف نسينا أن سورية الصغيرة جزء من الشام الكبير، كيف نسينا الشام الكبير واخترعنا أسماء، سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

شكراً أيها الشيخ.. لقد علمتنا تاريخنا، ورددت على مسامعي اسم جزء هو أيضاً صغير في وطني العربي الكبير.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومضينا إلى المدينة المنورة، مدينة الرسول ﷺ. هنا قامت دولة الإسلام.

من هنا بدأت مسيرة العرب الكبرى.

ومن هنا سارت جحافل المؤمنين إلى معركة بدر، ثم أُحد، ثم مؤتة، ثم إلى الشام والعراق ومصر، ثم إلى كل العالم المعروف آنذاك.

هنا رأيت رسول الله ﷺ. وقد شد أصحابه على بطونهم حجراً واحداً من الجوع، أما هو فقد شد على بطنه الكريم حجرين.

هنا سمعت أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، وقد ارتدت العرب، إما عامة وإما خاصة، في كل قبيل، ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى، وأصبح المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشتائية، لفقد نبيهم، ﷺ، وقلتهم، وكثرة عدوهم، وقال له الناس وقد أمر جيش أسامة بالمسير:

إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب ـ على ما ترى ـ قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين.

هنا سمعت أبا بكر يقول بصوته الهدار بالإيمان:

والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق غير في القرى لأنفذته[1].

هنا رأيته، يشيع جيش أسامة، وهو ماش، وأسامة راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله. والله لتركبن أو لأنزلن.

فقال: والله لا تنزل، ووالله لا أركب[2].

في طرقات المدينة المنورة رأيت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يهرع وقد حمل كيس دقيق على ظهره، ثم يقف عند باب عجوز، عندها أطفال جياع، ثم يوقد الناس وينفخها ويتخلل الدخان لحيته الكريمة.

---

[1] الطبري ج3 ص 225.
[2] الطبري ج3 ص 226.

تتابعت الصور مذهلة سريعة، وكانت كلها صور رجولة وكبرياء وإيمان، ووقفت مسلماً على القبور الثلاثة الكريم: قبور محمد ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ما أعظم هذه القبور! إنها أكبر وأجل من كل ما في العالم من قصور.

كان القمر يتلألأ في السماء، يحاول أن يتريث في رحلته الأبدية ليقف قليلاً في الحرم النبوي، ويختلس نظرة إلى قبور النبي ﷺ وصاحبيه الكريمين رضي الله عنهما.

وسمعته يقول لي:

ما أسعدك!! أنت تجلس هنا، وتسلم على النبي وصاحبيه، وأنا مضطر إلى الرحيل في سفري الأبدي.

وقلت له أعاتبه:

أتحسدني أيها القمر!! أنا أرى الحرم الشريف مرة واحدة في عمري كله، أما أنت فتراها كل يوم.

أرأيتم، أن الأشياء ربما كانت أكثر طعماً وأشد حسداً من الناس! ويسكت القمر ويخجل من طمعه، ويصفر حياء، ثم يمضي في رحلته الأبدية.

في البقيع:

ومضينا إلى البقيع، ووقفنا خاشعين أمام أسواره وجدرانه، أيمكن أن تكون في الأرض بقعة أكثر طهارة وقدسية من هذه البقعة الطيبة؟

أيمكن أن تغص مقبرة من المقابر في العالم بأموات أكثر شرفاً وبطولة وعظمة من هؤلاء الأموات من الشهداء والعظماء؟

كانت القبور بسيطة، أكثرها ترابي دارس، وهناك بعض الأحجار الصغيرة تقف خاشعة على رؤوس بعض القبور كأنها حراس.

لم تكن القبور من رخام ولا مرمر، ولم تكن هياكل شاهقة، ولا مدافن رائعة مزخرفة، بل كانت قبوراً بسيطة، من تراب وحصى، ولكنها تضم في حناياها أمواتاً عظاماً، رجالاً لا كالرجال، ورأيت هذه القبور بعيني تسمو وتعلو لتصبح قباباً شامخة من نور تخجل من روعتها قباب مقبرة (تاج محل) في الهند وتنحني لجلالتها مقبرة العظماء في باريس.

هكذا تكون العظمة الحقيقية ـ تكون في النفوس لا في الأحجار، في الدفين داخل القبر لا في القبر الجاثم فوق الدفين.

في جبل أُحد:

ومضينا إلى جبل أحد، إلى الجبل الذي يحبنا ونحبه.

ها هنا دارت المعركة، من هذا الفج في الجبل أقبل خالد بن الوليد بفرسانه ليحارب المسلمين الذين تركوا مواقعهم بعد أن بانت علائم النصر، وخالفوا أمر رسول الله ﷺ.

هاهنا، وراء هذه الصخرة رأيت وحشياً ـ عفا الله عنه ـ يكمن لسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

قال وحشي:

(والله إني لأنظر "حمزة" يهد الناس بسيفه، ثائر الرأس، ما يلقى شيئاً يمر به، مثل الجمل الأورق.. وكنت كامناً تحت صخرة، لا يراني، وهززت حربتي حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه، فأقبل نحوي، فغلب فوقع،

وأمهلته حتى إذا مات، جئت فأخذت حريتي ثم تنحيت إلى العسكر)[1].

ها هنا رأيت هنداً أم معاوية تجدع آذان الشهداء وأنوفهم وتجعلها خدماً[2] وقلائد، ورأيتها تبقر عن كبد حمزة، فلاكتها لفم تستطع أن تسيغها فلفظتها[3].

ورأيت قبر حمزة ــ رضي الله عنه ــ رمزاً للشهداء والدفاع عن دين الله قبراً متواضعاً في باحة جرداء.

لقد رقد الذي كان يهدر كالجمل الأورق في حفرة من تراب هامد.

ورأيت الخندق

ها هنا كان رسول الله ﷺ يخطط الخندق ويشترك في حفره ويكسر صخوره ويحملها على ظهره الكريم.

قمنا بواجب وداع المدينة المنورة، وتضرعنا إلى الله أن نعود ونعود، ورجعنا بالطائرة إلى الرياض. ومددت عيني إلى أطراف الحجاز والشام.

---

(1) الطبري ج2 ص 517.
(2) الخدم: ج خدمة: الخلاخيل.
(3) الطبري ج2 ص 525.

هنالك تختلط حدود الشام بالحجاز، وهناك تقوم مؤتة، ورأيت جعفر بن أبي طالب يحارب الروم، يقتلهم ذات اليمين، وذات الشمال، ثم يتكاثرون عليه فيقطعون يمينه، فيأخذ اللواء بشماله، فيقطعون شماله، فيحتضن الراية بعضديه، فيضربونه بسيوفهم حتى قطعوه نصفين، وأقبل المسلمون عليه فوجدوا فيما بقي من بدنه تسعين ضربة، من طعنة برمح وضربة بسيف.

ونظرت إلى جناحيه مضرجين بالدماء يطير بهما في السماء، اللون لون الدم والريح ريح العنبر.

العودة:

عدت من السعودية، بعد قضاء العمرة، بقلب جديد، وإيمان وطيد بالنصر، واستقبلني صديقي، وحدثت عما رأيت ووعيت، فإذا الصديق الذي استغرب بالأمس سفري يقول: غداً أو بعد غد سأشد الرحال إلى مكة المكرمة لأداء العمرة ولأرى أرض أجدادي التي أنبتتني رمالها.

الرقابة

تعريف: الرقابة هي السيف الذي تذبح به السلطة المستبدة عقول الأدباء وتدفن قلوبهم ومشاعرهم في الزنزانات وتكسر أقلامهم وتحولها إلى نفايات في المزابل.

أ ـ من التاريخ القريب:

عرفت بيروت في أواخر القرن التاسع عشر الرقابة التركية على المطبوعات فأصدر (سليم سركيس) صاحب جريدة (المشير) كتابه (غرائب المكتوبجي) [1].

أما المكتوبجي فهو الرقيب، والكلمة مؤلفة من (مكتوب) بالعربية ومن (جي) بالتركية وطبعه في القاهرة عام 1896.

---

[1] من مقالي في جريدة (النور) العدد 6 التاريخ 2001/6/17.

يسجل المؤلف في كتابه 54 غريبة أو طرفة من عجائب الرقيب.

بعض الغرائب:

نشرت جريدة (المصباح) الإعلان الآتي:

إن قطعة الأرض المشتملة على... وهي دار ملك محمد علي الطرابلسي معدة للإيجار. فلما قرأ المكتوبجي الإعلان استشاط غيظاً... حذف كلمة مِلْك (لأنها تشير إلى مَلك) واستبدل بها لفظة (إمبراطور) وصار الإعلان هكذا (إن دارَ الإمبراطور محمد علي الطرابلسي معدة للإيجار).. ص 29.

كتبت جرائد ببيروت أن أحمد أفندي سلطاني غادر بيروت فحذف المراقب النون والياء (لأن الكلمة تشير إلى السلطان) وهكذا بقي الاسم (محمد علي سلطا...) ص 30.

البويجية دعاة الجمهورية:

أرسلت الغلمان لبيع الجريدة وأوعزت إليهم أن ينادوا:

(موت رئيس جمهورية فرنسا) وفي المساء لم يحضر الأولاد وجاءني خبر أنهم جميعاً في السجن فهرولت إلى مدير

البوليس قال: إنهم ينادون في شوارع المدينة بالجمهورية، وهذه اللفظة ممنوع استعمالها فوعدته ألا أعود إلى ذكرها، وهكذا أطرق سراحهم. ص 31.

أكتفي بذكر هذه الغرائب الثلاث وإن كانت لا تغني عن قراءة ذلك الكتاب الطريف كله والتمتع بعجائبه.

والسؤال:

هل أصبح المراقب العربي في القرن الواحد والعشرين أرقى من المراقب التركي في القرن التاسع عشر؟

والجواب: كلا ثم كلا.

وسأبين ذلك في الفقرة الثالثة من هذا الموضوع.

ب ـ موقفي وموقف اتحاد الكتاب العرب في دمشق من الرقابة:

كان الموظفون المسؤولون عن الاتحاد ميالين إلى تنفيذ أوامر سادتهم إلى تولي الاتحاد نفسه قضية مراقبة الكتب.

فاعترضت وانصب اعتراضي على هذه النقاط الثلاث:

1 ـ من واجب اتحاد الكتاب أن يرفض مبدأ الرقابة رفضاً حاسماً.

2 ـ على اتحاد الكتاب إذا فرضت السلطة الرقابة أن يستنكرها ويطلب إلغاءها.

3 ـ إذن فكيف يوافق الاتحاد أن تكون الرقابة له ومن اختصاصه.

إن ذلك يعني أن يتطوع الكتاب في تعليق الأغلال في أعناقهم.

وعرضت الموضوع على التصويت فارتفعت أيدي الكتاب كما هي العادة في وطننا العربي السعيد بالموافقة على تكليف اتحاد الكتاب مراقبة كتابات الكتاب.

ولم يطل انتسابي إلى الاتحاد بعد هذا الموقف ومواقف أخرى مماثلة فانسحبت منه في 1986/1/31، ورفضت ـ وما أزال أرفض ـ راتب تقاعد الكتاب رغم بلوغي السابعة والثمانين من عمري، ورغم أن أول كتاب لي وهو (ذكريات حياتي الأدبية) لمكسيم غوركي نشرته في القاهرة عام 1945 أي منذ 58 عاماً.

ج ـ تجربتي مع رقابة بلادي:

في الفقرة الأولى من هذا الموضوع (الرقابة) سألت:

هل أصبح المراقب العربي في القرن الواحد والعشرين أرقى من المراقب التركي في القرن التاسع عشر؟

وكان جوابي على هذا السؤال: كلا ثم كلا.

وإليكم الدليل على ذلك فيما عانيته أنا نفسي من غرائب (المكتوبجي):

في عام 1951 ــ أي في عهد البرجوازية الرجعية ــ أصدرت ترجمتي لكتاب (مكسيم غوركي) "المتشردون" وكتبت له هذا الإهداء:

إلى خزامى

التي أرجو أن لا يجتمع عليها اليتم والتشرد.

وإلى الذين

لم تضق بهم الحياة وإنما ضاق بهم نظامها الظالم

وإلى الذين

لم تضق بهم الأرض وإنما ضاق بهم توزيعها الغاشم

وإلى الذين يسعون للقضاء على الظلم كله
لكي تسعد الحياة للناس جميعاً
فلا يبقى هنالك متشردون
أهدي هذا الكتاب.

1951/11/13

وفي عام 1981 أي بعد 30 سنة وفي ظل الحكم التقدمي أردت إعادة طبع الكتاب بعد نفاد الطبعة الأولى وقدمته إلى الرقابة فحذف الرقيب كلمة الإهداء لأنها (شيوعية) وصدر الكتاب دون إهداء.

في 1984/11/5 توفي الصديق التقدمي علي خلقي، وكتبت كلمة في رثائه قلت فيها: إنه كان شيوعياً غير منتسب إلى حزب، فحذف الرقيب كلمة (شيوعي) من الجريدة، فليس من اللائق أن تذكر كلمة (شيوعي) في جريدة تقدمية.

أصدر كتابي (من أيام فرنسا في سورية) في بيروت عام 1992. وفيه قصة امرأة مسيحية تسكن في حمص مع

زوجها في غرفة واحدة لجأ إليها ثائر من بقايا ثورة سلطان باشا الأطرش، فلما جاء الفرنسيون للقبض عليه بوشاية جاسوس. أمرت المرأة الثائر بالبقاء في (الليوك) [1] وجلست في عتبة الغرفة وبدأت تغتسل بالماء الذي أعدته لطبخ (المجدرة) وعندما فتح الضابط الفرنسي باب الغرفة ورأى المرأة عارية تغتسل قال: لا يمكن أن يكون الثائر في هذه الغرفة فانسحب مع جنوده.

وعندما جاء زوجها في المساء وقصت عليه قصتها قال لها هذه الكلمة الخالدة: الله يستر عرضك كما سترت عرضي.

هذه القصة الوطنية العالمية. التي أعتذر لأني شوهتها بتلخيصها. كانت سبباً في منع دخول الكتاب إلى بعض الدول العربية بحجة دامغة قدمها الرقباء:

كيف يمكن أن تكون القديسة عارية؟

---

[1] فجوة في الحائط تضع فيها الأسرة الفرش واللحف.

قدمت للرقابة ديوان جدي (الشيخ زكريا الملوحي) وهو من شعراء القرن الثاني عشر الهجري، والديوان كله مدائح نبوية بقي الديوان ثلاثة أشهر وأنا أراجع الرقابة حتى تكرمت علي وسمحت بنشره.

ذلك بعض ما عانيته من الرقيب، ولعله قليل من كثير مما يعانيه رفاقي الشعراء والكتاب.

إذن (فالمكتوبجي العربي) في القرن الحادي والعشرين ليس أحسن حالاً من (المكتوبجي التركي) في القرن التاسع عشر.

معين بسيسو يعاتب الكتاب والشعراء

نشـــرت جريـــدة (تشـــرين) في العـــدد 2266، تـــاريخ 1982/7/19 قصيدة الشاعر المناضل معين بسيسو يعاتب الكتاب والشعراء:

عموا صباحاً أيها الكتاب

لعلكم بخير أيها الكتاب

لعل نقادكم بخير أيها الكتاب

لعلكـــم اكتشـــفتم صـــيغة جديـــدة لشـــعركم أيهـــا الكتاب

لعلكم تسمعون نشرة الأخبار

لعل أطفالكم لا يخافون

مثلما يخاف أطفالنا

حين يسمعون نشرة الأخبار
لعلكم تذكرون أسماءنا
وتذكرون المطارات
والموائد الطويلة الأنخاب
لعلكم تذكرون في ليالي الأنخاب
سهراتنا
والشعارات التي تكدست
على الحيطان والأبواب
والقصائد العريضة الأكتاف
والمهتزة الأرداف

***

هذا المساء أين تسهرون؟
أيها الكتاب
لمن سوف تكتبون؟
رسائل الإعجاب؟

أيها الكتاب.
لشاعر مضرب عن الطعام في البحرين؟
أو لكاتب أصيب بالإسهال في البنجاب
أو ناقد هنا وهناك
حط على أوراقه الذباب
أيها الكتاب

***

أيها الكتاب
طويلة قائمة الثورات
أيها الكتاب
نحن لا نريد منكم دما
ولا نريد خبزاً أيها الكتاب
عموا صباحاً أيها الكتاب

معين بسيسو

لقد انطلق الشاعر الفلسطيني من حسرة تتردد في صدره من موقف الأدباء العرب من شعبنا الذي يقتل في فلسطين، وهذه قصيدتي في الرد عليه، ونشرتها تشرين في عددها 2268 في 1982/7/21:

لماذا تعاتبنا يا معين؟
ونحن مثلك محاصرون
نأكل خبزنا مراً
نشرب خمرنا سماً
نحمل قلمنا سيفاً مكسوراً
تقطر قلوبنا دماً أسود
أطفالنا مثل أطفالكم يخافون.
نصغي إلى نشرات الأخبار واجمين
نردد أسماءكم ألف مرة ساهمين
ونخجل لأننا لسنا معكم.
نحمي أبطالكم بما بقي من أجسادنا المنخورة

نحمل جرحاكم على ما بقي من ظهورنا المكسورة
لا نملك إلا حبراً يتخثر
لا نملك إلا قلماً بجثث ضحايانا يتعثر
فلماذا تعاتبنا يا معين؟

***

ماذا تريد منا يا معين؟
أنت تعرف أنا نقاتل بالكلمات
وقد أصبحت الكلمات بغايا وسبايا
فلا نستطيع إلا أن نكون
قوادين أو نخاسين
في زمن قتلنا فيه روح الكلمات
ورقصنا فيه على قبور اللغات
في زمن تعلق فيه أوسمة السلام

على صدور قتلة الأطفال في لبنان

وعلى أقفية مخنثي العرب في القاهرة

وغير القاهرة

***

عم صباحاً أيها الشاعر

نحن نحييك..

عبد المعين الملوحي

زقاق الأربعين في حمص....

ما أكثر ما نعد هدم قديمنا تجديداً وإنكار تاريخنا حضارة، ومحو تراثنا مدنية.

في حمص حي يدعى زقاق الأربعين، قل نظيره في العالم، إنه يضم حوالي ثلاثة آلاف من السكان ويخترقه زقاق يتلوى وينعطف أربعين تلوياً وانعطافاً أولاً ولا يكاد عرضه في أوسع نقطة منه يتجاوز متراً أو متراً ونصف متر. إنه أعجوبة.

كنا ونحن صغار نخاف أن نسير فيه، ربما خرج لنا من هذا المنعطف أو ذاك أسد أو نمر يأكلنا أو شقي يقتلنا ويسلبنا، فلما كبرنا تعودنا السير فيه ذهاباً إلى مدرستنا الخيرية الإسلامية وعودة منها، فإذا هو هادئ مريح، لا أسود ولا نمور ولا قاتل.

وما لبثنا أن جعلناه ملعباً لنا وملهاة توحي إلينا كثيراً من اللعب واللهو والراحة، بل كنا نمر به في شبابنا لنتمتع بالسير الغريب فيه.

ومرت الأيام، ونفيت إلى دمشق.

كنت في كل مرة أزور فيها بلدي حمص لا بد أن أمر في هذا الشارع. إنه على عهدي به منذ أكثر من نصف قرن، ولا يزال ضيقاً ولا يزال هادئاً ولا يزال ينعطف كالنهر الأعوج كل بضعة أمتار.

وزرت حمص سنة 1984، فإذا الزقاق قد زال، وإذا البيوت قد تهدمت، وإذا هو وهي أكوام من التراب والأحجار.

صدقوني أني كدت أبكي عندما رأيت هذه الساحة المقفرة تمتد من شرقي دار الحكومة إلى شارع أبي العوف، في مساحة تقدر بثلاثمائة متر طولاً ومائتي متر عرضاً.

هنا كان يقوم حي الأربعين الأثري الذي كان أعجوبة من بين الأحياء، فإذا أحد الحمقى يهدمه ولا يبقي فيه حجراً على حجر لأنه متحضر ولأنه مهندس درس في أوروبا

الراقية، يطبق عمله وفهمه في بلده المتخلف. كأن هذا العلم يقتصر على هدم الآثار، وإنكار تاريخ بلده ومحو تراثه الحضاري.

أنا أعترف أن هذا الحي أعجوبة بين الأحياء وأعترف أنه لا يصلح لمرور السيارات، ولا لإنشاء البنايات الشاهقة، ولكنه حي يسجل في منعطفاته وتلويه ودوره الهرمة وأرضه المزروعة بحجارة سود صغيرة، تاريخ بلد وماضي شعب، وتراث أمة.

أراضي حمص تمتد غرباً من الوعر إلى جبال العلويين، وتمتد شرقاً إلى بادية الشام، وليس وجود هذا الحي القديم مانعاً من امتداد العمران الحديث، فلماذا هدم هذا الحي الأعجوبة؟

وخفف من حزني أن في أول زقاق الأربعين منذئة نموذجية، إنها برج مستدير من حجارة سود تقوم فوقه مئذنة صغيرة يصعد إليها في درج حجري يمتد على طرف البرج، وقد نجت المئذنة من أيدي المهندس العبقري، ويبدو أنها مسحورة وإلا فما الداعي إلى بقائها وهي مثل زقاق الأربعين أثرية قديمة.

يا وطني...

ما أكثر ما نعد هدم قديمنا تجديداً وإنكار تاريخنا حضارة ومحو تراثنا تمدناً!

عندما زرت فلورنسا وجدتها قديمة، ورأيت أزقتها مرصوفة بالحجر الأسود وأبنيتها ذات طراز قديم، ترتفع جدرانها ارتفاعاً شاهقاً، ومع ذلك فقد بقيت هذه الأزقة وهذه البلدة كما كانت منذ ألاف السنين، أما المدينة الحديثة فقد امتدت خارج المدينة القديمة الأثرية، وعلمت أن أصحاب البيوت في هذه المدينة الأثرية لا يحق لهم أن يحدثوا فيها تبديلاً حتى الدهان إلا بترخيص من البلدية، أما نحن فبلديتنا هي التي تولت هدم آثارنا ومحو تراثنا.

لقد قتل المهندس الغبي شطراً عزيزاً من طفولتي وشطراً غالياً من تاريخ حمص، فما أبعد ما بين العقول: العقول التي تهدم والعقول التي تبني.

في ضوء الشموع

مرت على سورية سنوات كانت تنقطع فيها الكهرباء عدة ساعات في اليوم الواحد. ذات مرة زرت بلدي حمص،

فانقطعت الكهرباء طوال الليل فنظمت قصيدة على ضوء الشموع منها هذان البيتان:

على ضوء الشموع نظمت شعري

وتعجبُني مناجاة الشموع

ولولا الشمس تتجدنا نهاراً

قضيناه على ضوء الشموع

سكرة صديق

زرت حمص مع الأخ علي خلقي ونزلنا في (قصر يلدز) وهو ـ إذا لم تحسن الظن ـ غرفة واحدة تبلغ مساحتها حوالي 20م2 ولها مطبخ ومرحاض تبلغ مساحتهما متراً وربعاً. وظلنا أياماً نذهب صباحاً إلى مقهى الروضة ونذهب مساءً إليه ونأوي إلى (قصر يلدز) ليلاً.

ودعانا أحد الأصدقاء إلى مقصف المشتاية وهي على بعد حوالي 50كم من حمص وذهبنا إليه ومعنا صديق آخر.

أنا لا أشرب منذ مرضي وطلب الإخوان ثلاثية عرق وشرب كل واحد منهما قدحاً واحداً وذهب علي بالثلاثية كلها، ثم طلبوا بطحة ولم يشرب الإخوان منها شيئاً. وذهب علي بها كلها وبدأ جلب الأقداح، واكتفى الإخوان بما يشربان وبدأ علي يشرب قدحاً بعد قدح.

وأعادنا صديقنا الذي دعانا إلى المقصف بسيارته، ومدّ علي يده إلى جيبه وأخرج عشر ليرات، وقال له: خذ هذه أجرتك.

وقلت للداعي صاحب السيارة: أجرتك ثماني ليرات فلماذا أخذت عشراً، ومد صاحب السيارة يده وأعاد إلى علي ليرتين.

وقلت لعلي بعدما صحا قليلاً في اليوم التالي:

ـ كيف تعطي صديقنا الذي دعانا إلى المشتاية وحملنا بسيارته إليها عشر ليرات؟

قال:

ـ ظننت أننا في سيارة أجرة فأعطيته أجرته.

وصلنا حمص ودخلنا (قصر يلدز). وكان علي سكران إلى حد بعيد ولكنه كان يتماسك:

ـ أرجوك نحن في حمص، وأنا مريض، فلا (تعملها) في حمص وأبقها إلى (دمشق). فقال: وحياتك لن أموت إلا في دمشق فلا تخف.

ذهب علي عندما كنا في المشتاية إلى المرحاض وقلت لأحد الصديقين: أرجو أن توصله فأخاف أن يسقط، وذهب معه الصديق وعندما عادا كانت كل ثياب علي السفلية غارقة في البول، لقد بال على نفسه وهو لا يشعر.

استيقظنا صباح اليوم التالي فإذا علي يتوضأ ويريد أن يصلي.

سألني: ألا تجوز صلاتي؟

قلت: نعم حتى تطهر ثيابك فهي نجسة كلها.

وترك علي الصلاة وهو يقول:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولم يمض شهران حتى سكر علي سكرة لم يستيقظ منها ووفى بوعده عندما قال لي: إنه سيموت في دمشق.

رحمك الله يا علي فقد كنت تسكر وتصلي، وتعلن فلسفتك في ذلك فتقول:

ـ كل شيء لحاله....

اعتقالي واعتقال الشيخ دهمان

طلب مني الإخوان هادي العلوي وفاضل الربيعي مقابلة الأستاذ الشيخ محمد أحمد دهمان بعد أن سمعا الثناء على أخلاقه وتفكيره فهتفت للأستاذ دهمان واتفقنا على موعد في بيته. ذهبنا إلى إلى بيت الشيخ فاستقبلنا استقبالاً حافلاً. وبعد السلام سأله الصديقان ـ وكان من الشيعة ـ ما رأيك في الشيعة يا أستاذ؟

فقال في هدوء وقناعة:

ـ كل من قال: لا إله إلا الله فهو مسلم.

وسألناه: وما رأيك في مصادر الشيعة؟

وقال في هدوء وقناعة:

ـ مصادر أهل السنة أكثر دقة وصحة من مصادر الشيعة.

وسألاه أسئلة أخرى ثم خرجنا.

في اليوم الثاني جاء الأستاذ دهمان وجلس معي على مقعدنا في حديقة السبكي وسألني:

ما رأي الإخوان في المقابلة؟

قلت:

ـ أثنوا عليك وعلى أفكارك الحرة ثناء عطراً.

وسألني:

ما رأيهم عندما حدثتهم عن مصادر أهل السنة ومصادر الشيعة؟

شعرت أن شاباً يقف وراء مقعدنا ويصغي لحديثنا وقلت:

ـ لا بأس ليقف ويتعلم.

وتركته وراء المقعد يصغي.

وأجبت الشيخ:

لقد رضيا حكمك ورأياه عادلاً.

وما كدت أجيب الشيخ حتى جاء الشاب الذي كان يقف وراء المقعد، وقال في لهجة الآمر:

ـ هاتوا الهوية.

سألناه:

ـ وماذا فعلنا؟

قال:

أنتم تتحدثون عن مصير الشيعة؟

وقلنا في هدوء:

بل نتحدث عن مصادر الشيعة، عن كتبهم وكتب أهل السنة لا عن مصيرهم.

قال: هاتوا هويتكم.

ولم تكد تمضي دقائق حتى اجتمع حوالينا أكثر من عشرة أشخاص من المخابرات، وكان هؤلاء العشرة بعض من كان يراقب الناس الذين يجلسون في الحديقة وحدها وأخرجت هويتي وأعطيتها الشاب.

وقال الشيخ:

ـ بدلت ثيابي وتركت هويتي في ثيابي القديمة.

وقال الشاب:

ـ نذهب إلى بيتك ونأخذها.

وبينما نحن نتكلم جاءت ابنة الشيخ دهمان بسيارتها لتعيد أباها الشيخ إلى البيت، وعرفت الموضوع فقالت للشاب:

إنه الشيخ محمد أحمد دهمان، حامل الوسام السوري.

فقال الشاب: لا علاقة لي بالأوسمة، أريد هويته، وأريد أن نذهب إلى المخابرات.

وركبنا السيارة وذهبنا إلى بيت الشيخ وجاءت ابنته بهويته فأخذها الشاب وسارت السيارة في طريقها إلى المخابرات.

يقع بيت الشيخ في أبي رمانة أمام المسجد ووراء نقابة العمال، ولم نكد نصل إلى قصر الضيافة حتى قال لابنة الشيخ وكنا في سيارتها وكانت هي التي تسوقها، فإذا الشاب يقول لها: قفي هنا.

ثم يقول لنا: خذوا هوياتكم.

وقفت السيارة وأخذنا هوياتنا وبقي الشيخ في سيارة ابنته.

وقال لنا الشاب: مع السلامة.

وقلت له في هدوء:

ـ يا بني أرجو أن تتعلم التفريق بين كلمتي المصدر، وكلمة المصير وتفرقنا.... أرأيتم أننا في زمن الطوائف؟

قال لي إخواني، وقد قصصت عليهم قصتي:

كان يجب أن تبقى وأن تذهب مع الشيخ إلى المخابرات.

وقلت لهم:

أصلحكم الله، ومن يضمن لنا أن يكون مديره ممن يفرق بين المصدر والمصير؟

المرأة العربية ما تزال رقيقة

إذا كان الرقيق قد ألغي نظرياً في القرن الماضي فإن المرأة العربية كانت وما تزال رقيقة.

تتزوج من دون استشارة وتطلق تعسفاً وتحرم حريتها في التنقل، حتى في امتطاء السيارات في بعض البلدان العربية، وتضرب وتهان وتطرد، ويجري عليها كل ما كان يجري على الرقيق، بل إنها أحياناً تعامل معاملة الأشياء.

قد تقولون: ولكن هناك استثناءات، وأقول نعم استثناءات، واستثناءات كثيرة في بعض البلاد العربية، ولكن الاستثناء ليس قاعدة ولكن الأصل في الحكم هو ما يجري للملايين من النساء العربيات في أكثر البلدان العربية بل للأكثرية من النساء في الأقطار التي نجد فيها بعض الاستثناءات.

لا أريد أن أفصل في هذا الموضوع ولكني أكتفي بالسؤال:

ما عدد المحتجبات في البلاد العربية حتى في الأقطار التي تتمتع به المرأة بشيء من الحرية؟

والعلاج في رأيي يقوم على عناصر ثلاثة:

أولاها العلم.

فتح أبواب العمل للنساء على قدم المساواة مع الرجال في كل العمال التي يرغبن في القيام بها.

تدخل الدولة بإصدار التشريعات التي تضمن حقوق المرأة وتصون حريتها، وتنفيذ هذه التشريعات عملياً.

متى تصبح المرأة في البلاد العربية إنساناً حراً لا جارية؟

(خطيئة الرجل... وخطيئة المرأة!)

نسمع بين حين وحين نبأ مصرع فتاة على يد أخ أو ابن عم أو قريب، ويقال بعد ذلك إن أخاها قتلها لأنها شذت أو "عابت".

وينقسم الناس فريقين: فريق يرى أن هذا القتل كغيره جريمة من الجرائم، وأن المبرر للقتل غير موجود، وأن مثل هذه القضايا يجب أن تحكم عليها المحكمة، فلا يجوز لإنسان أن يتخذ من نفسه مدعياً وحاكماً ومنفذاً في وقت واحد، ثم يرى هذا الفريق أن مثل هذا القاتل يكاد يدخل السجن حتى يخرج منه، فالقضاء في مثل هذه القضايا لا يحكم بغير سجن القاتل سنتين أو ثلاثاً باعتبار الأسباب المخففة، ويخرج القاتل من السجن لينظر إليه على أنه بطل.. ويظل يفخر أنه قتل أخته لأنها لم تكن كما يريد.

ويضيف أصحاب هذا الرأي أن مثل هذه الحوادث تتكرر في كل حين، وأنها في الواقع قد لا تكون نتيجة شذوذ الفتاة أو ابنة العمل أو الزوجة، وإنما هي نتيجة لرغبة في زواج تكره عليه الفتاة فإذا أبته وأرادت غيره قتلت، أو نتيجة لرغبة ابن العم في ابنة عمه فإذا رفضته قتلت، أو رغبة في التخلص من زوجة لا يدس زوجها لها السم، وإنما تقتل بالرصاص أو بالخنجر.

بل إن هذه الحوادث قد تعدت الأخت أو ابنة العم والزوجة، وشملت حتى الأمهات، فبعض الأمهات قد قتلن بأيدي أبنائهن، لأن هؤلاء الأبناء قد نصبوا من أنفسهم حكاماً على أمهاتهم، ثم قتلوهن لأنهن لم يكن كما يريد هؤلاء الأبناء.

ويدعو هذا الفريق من الناس إلى التشديد في أمر الحكم على هؤلاء القتلة، وإلى اعتبارهم مجرمين، ثم يرون أن تخفيف الحكم عنهم هو الذي يدعوهم إلى القتل دعوة صريحة، فلو كان الذي يريد التخلص من أخته يعرف أن الحكم عليه سيكون الإعدام لتأخر وتردد طويلاً قبل أن يقدم، فأكثر حوادث القتل عندنا لا تتجاوز حدود الجنس مطلقاً، أو لا تكاد تتجاوزها.

أمـا الفريـق الثـاني فـيرى في جريمـة القتـل هـذه أمـراً عادياً، ويـرى أنـه قـد أنقـذ المجتمـع مـن جرثومـة خبيثـة، وأن هذا القتل له ما يبرره، وهو يعطف على القاتل ويحيطه بعين الرعاية، ويرى فيه بطلاً ينبغي أن يكرم.

ويظـن هـذا الفريـق أن المـرأة يحكمهـا الخـوف، وأن الأخـلاق لا تصـان إلا بالرعـب، بالرعـب مـن القتـل في الـدنيا والرعب من النـار في الآخـرة، وهكـذا لا تنـاقش القضـايا إلا مـن زاويـة واحـدة هـي زاويـة العـرض، والمقصـود بـالعرض هنـا الشـكل الجنسـي المعـروف، ولـو رجعنـا إلى أصـل الكلمـة باللغـة العربيـة لعرفنـا أن العـرض لا يقصـد بـه مجـرد القضـية الجنسـية فالحفـاظ علـى العلاقـات الجنسـية لم يكـن أكثـر من مظهر واحد من مظاهر العرض، وإنما يقصد بـه الشـرف بكل معانيه ومفاهيمه.

قال زهير:

ومـن يجعـل المعـروف مـن دون عرضـه

يفـره ومـن لا يتـق الشـتم يشـتم

وقال آخر:

.. وأدرك موفور الغنى ومعي عرضي.

ولكن الظاهر أن بقاء هذه البلاد أمداً طويلاً تحت الاستبداد من كل نوع، قد جعل مفهوم الشرف الواسع مفهوم الكرامة الرفيعة، يتضاءل شيئاً فشيئاً من نفوسنا ليحل محله الشرف من وجهة نظر معينة ضيقة، هي وجهة النظر إلى الجنس وحده وحل محل كلمة العرض بمعنى الشرف، كلمة العرض بمعنى الجنس.

وهكذا بقيت من هذا الشرف الواسع زاويته الجنسية، لقد تعددت حوادث القتل المدفوعة بما يسمى الحفاظ على العرض، ولعل هذا الحفاظ أقل ما في الموضوع، وأصبح كل رجل يريد أن يكون بطلاً اجتماعياً على حساب هؤلاء النساء المسكينات، ونسي المجتمع كل المجتمع تقريباً، أن جريمة الشذوذ واقعة على عاتق المجتمع كله، ولذلك فهو يتخلى عن مسؤوليته في هذه الجريمة ليضعها على عاتق الضحية وحدها، فتسقط هذه الضحية مخضبة بدمائها حتى في دور الحكومة وحتى في المحاكم أمام عيون

القضاة، في المحاكم التي يجب أن تحترم وتصان لأنها تمثل الحق، تمثل هؤلاء الذين رفعهم المجتمع ليحكموا بين الناس بالعدل.

منذ شهر حدثت حادثة في حماة، وفي دار الحكومة أيضاً، قتل فيها أخ أخته، وأمس حدثت حادثة مثلها في حمص وفي دار الحكومة قتل فيها ابن عم ابنة عمه، وسوف تتكرر هذه الحوادث، وسوف تحرمنا كل يوم من إنسان حي، إنسان لا يجوز أن يحكم عليه أخوه أو ابن عمه بالقتل، فمثل هذه الأحكام لا يجوز لغير القضاء أن يتولاها لا إنسان، إنسان لا يجوز أن ينفذ فيه أخوه أو ابن عمه الحكم عليه وإنما يجب أن ينفذ هذه الأحكام القانونية رجال السلطة التنفيذية في الدولة إن وجداننا يحتج على التساهل في هذه القضايا، إن مصلحة وطننا تقضي إيقاف هذا السيل المتزايد من الجرائم المنكرة، إن قتل هؤلاء الفتيات لم يحل مطلقاً دون سقوط غيرهن من أخواتهن في الهاوية التي سقطن هن فيها، ووقوعهن قتيلات بالأيدي التي قتلن هن قبلها فيها ومع ذلك فلم تحل المشكلة ولن تحل، ما دام في مجتمعنا امرأة تدعوها الحاجة إلى إطعام أولادها

بثدييها، وأخت تثور لأنها تريد أن تتزوج غير الشاب الذي يقدمه لها أخوها، وزوجة تعرف أن زوجها يعيش كل يوم في حضن امرأة أو مومس، ثم هو يريد أن تبقى في بيته.

إن تغاضي مجتمعنا المطلق عن شذوذ الرجال يقابله تشدد مطلق في شذوذ النساء، ولست أدري ما الذي أباح للرجل أن يكون شاذاً ولم يبح للمرأة أن تكون شاذة، مع أن الأحكام الدينية والشرائع والقوانين تحكم على الرجل والمرأة حكماً واحداً.

احكموا على القاتل بالقتل وسترون أن حوادث "النخوة" سوف تنقص ثم تزول، لأن هؤلاء الرجال ليسوا "رجالاً" إلا لأنهم يعرفون أنهم لن يلقوا عقاباً.

أيها الرجال: من كان منكم بلا خطيئة فليرجم هذه المرأة.

أيها الإخوان، ويا أبناء العمومة، ويا أيها الأزواج:

من كان منكم بلا خطيئة فليقتل أخته أو ابنة عمه أو زوجته...

كنا في جلسة ودار موضوع الجنس، فقال الشيخ دهمان: الجنس داء قديم لا خلاص منه.....

نماذج من النفاق

هذه حوادث شدتها وأريد أن أكتبها ليرى الناس أخلاق الناس، ونفاقهم ورياءهم، ولكني أرجو إذ ذكرتها أن يبقى الناس أصحاب أخلاق لا ينافقون، وإن اشتد النفاق، ولا يراؤون وإن كثر الرياء، أريد أن يستعصوا على الفساد.

الحادثة الأولى:

كنت أصلي وأنا فتى صلاة الجمعة في مسجد من مساجد حمص وسمعت خطاب إمام المسجد.

كانت نساء حمص تلبس الملاءة، وهي قطعة سوداء تغطي الرأس حتى القدمين وتبدو فيها المرأة وكأنها كيس فحم، وجاء حمص من لبنان تطور جديد في اللباس، تبقى فيه المرأة كيس فحم ولكن هذا الكيس ينقسم إلى

قسمين: قسم على الجذع، وقسم آخر يغطي البطن حتى يصل إلى الرجلين، وكان هذا الطراز الجديد يسمى (الكاب)، وقد انتشر بين نساء حمص انتشاراً واسعاً، وغضب الشيخ على (الكاب) وعلى لابساته فقال في خطبته بالحرف الواحد:

كل من لبست زوجته (الكاب) فهو ديوث.

كل من لبست أخته (الكاب) فهو ديوث.

كل من لبست أمه (الكاب) فهو ديوث.

كل من لبست بنته (الكاب) فهو ديوث.

وجعل الزبد يسيل من شدقه، وهو غاضب، وامتقع لونه حتى خفنا عليه الإغماء. وانتهت الخطبة وخرج الشيخ إلى غرفته في المسجد يحيط به أنصاره ومحبوه.

ترك واحد من أنصار الشيخ غرفته وخرج إلى الشارع لقضاء حاجة من حاجاته، وعاد مسرعاً إلى غرفة الشيخ يقول له: يا شيخنا مرت السيد زوجتك وهي تلبس (الكاب) لم يتغير لون الشيخ ولم يتعلثم في كلامه، بل قال، وهو يتلمظ وكانت شابة تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى:

المضروبة يلبق لها.

ومعناها (المدللة يليق بها هذا اللباس).

سمعت الشيخ يستنكر (الكاب) في خطبته وسمعت الشيخ يثني على (الكاب) لأنه يليق بزوجته.

وخرجت وأنا الفتى أتساءل: أين الأخلاق؟

ليت الشيخ لم يستنكر (الكاب) في لباس النساء وليت الشيخ لم يستحسن (الكاب) عندما لبسته زوجته. إذن لوقى نفسه الوقوع في النفاق، ولكفى الناس لقب (الديوث).

الحادثة الثانية:

كنت مدرساً في إحدى المدن السورية، وشهدت المدينة حملة رجعية مخيفة تعادي ذهاب النساء إلى السينما، ووصلت الحملة إلى حد إلقاء (ماء الفضة) على النساء الذاهبات إلى السينما فيحرق ماء الفضة أثوابهن وربما وصل إلى أجسادهن.

كنت أسمع باسم الشيخ الذين يتولى زعامة هذه الحركة الرجعية وذات يوم وكنت في زيارة قريب، فعرفني

على الشيخ وجعل الشيخ يثني على الحركة، وأنها كادت تؤتي ثمارها، وفجأة سألني:

متى تذهب إلى حمص؟.

فقلت له:

أبقى في مدينتكم أربعة أيام وأبقى في حمص ثلاثة أيام أسافر يوم الثلاثاء صباحاً وأعود يوم الجمعة مساء.

قال لي: يا أستاذ، بناتي لا يتركنني أنام الليل، وهن يردن الذهاب إلى السينما، وأنا أمنعهن، فيشتكين ويبكين. أرجوك أن تأخذهن معك إلى بلدك ليشاهدن السينما، ثم تعود بهن مساء يوم الجمعة.

وكان ذلك:

كن ثلاث صبايا حسناوات، أكبرهن في الثانية والعشرين من عمرها، وأصغرهن في الثامنة عشرة.

وفي حمص لم أكد أراهن إلا قليلاً.

صباحاً في سينما.

ومساء في سينما.

وليلاً في سينما.

وانتهت الأيام وعدت بهن إلى بلد الشيخ، وقد شبعن من السينما وقال لي الشيخ: جزاك الله خيراً، لقد أرحتني.

وهكذا كانت أخلاق زعيم الحملة على دخول النساء إلى السينما، يحرم على النساء دخول دور السينما ويرميهن بماء الفضة ويحلل لبناته الذهاب إلى السينما في بلد غير بلده ومع شاب من غير أسرته.

الحادثة الثالثة:

كنت في الباكستان في مهرجان الشاعر الباكستاني الكبير (محمد إقبال) وكنا سبعة من البلاد الأجنبية، أنا وخمسة رجال وسيدة واحدة.

ودعانا رئيس الباكستان (ضياء الحق) إلى بيته للعشاء عنده.

ذهبنا إلى بيت السيد رئيس الجمهورية، وبعد قليل دخلت زوجته فقمنا احتراماً لها، واقتربت فلم تصافح أحداً من الرجال، فمصافحة الرجال حرام. وصافحت السيدة وحدها.

كنت أعمل في الصين وألبس بزة (ماوتسي تونغ) المعروفة، فقال لي السيد الرئيس: سأسافر إلى الصين بعد بضعة أيام أرجو أن تكون في استقبالي فوعدته، وخرجت إلى المطار لاستقباله.

وكان في المطار حوالي 200 أو 300 من الصين ومن السلك السياسي لاستقبال الرئيس، وجاءت مع الرئيس زوجته، ولم تترك واحداً من المستقبلين إلا صافحته، وكنت من الذين ظفروا في بكين بمصافحتها وحرموها في إسلام أباد.

يبدو أن مصافحة الرجال في الباكستان حرام، وأنها في الصين حلال.

وهكذا يختلف الحلال والحرام تبعاً للمكان.

فما رأي القراء؟.

الناس كالأشجار

في عام 1979 زرت في مدينة السلط في الأردن صديقاً من أصدقائي، بدأ بزيارته لي في بيتي في دمشق دون معرفة سابقة، يريد أن يعرفني.

كان شاباً في الثلاثين من عمره يتدفق حيوية ونشاطاً، وعندما دخلنا بيته أشار إلى شيخ في التسعين من عمره، كأنه مجموعة عظام، كان يتربع على أريكة، وعندما سلمنا عليه تصورنا أنه رد علينا السلام، وقال صديقي:

والدي.

وبعد أقل من شهرين سمعت أن صديقي الشاب قد مات وأن أباه المقعد ما يزال حياً. الناس كالأشجار، بعضهم صلب كأشجار الأرز والخيزران وبعضهم هش كأشجار

الصفصاف وبعضهم لا يكاد يعيش إلا بدعم كالنباتات المتسلقة.

وتذكرت هذه الحادثة:

دخل شيخ مع بعض الشباب مجلساً للتعزية بطفل صغير، ولم يكد يدخل الشيخ حتى نظر إليه الناس مستغربين، أهذا الشيخ الفاني يبقى وذلك الطفل الصغير يموت وأحس بنظراتهم وما فيها من استغراب فقال:

إذا دخل الشيخ بين الشباب

عزاء وقد مات طفل صغير

رأيت اعتراضاً على الله إذ

أمات الصغير وأحيا الكبير

فقل لابن شهر وقل لابن دهر

وما بين ذلك هذا المصير

وتحضرني قصة أسامة بن منقذ ولدت له وهو في السبعين طفلة فنظم قصيدة يقول فيها ما معناه: عفوك عني

يا ابنتي فسوق تعيشين يتيمة، وما هي إلا سنوات حتى ماتت الطفلة وبقي أبوها أسامة فنظم الشيخ قصيدة في رثاء ابنته الصغيرة.

أرأيتم أن الناس كالأشجار.

ويقول الناس إن الإسراف يعجل الموت.

وهذا صحيح لو كان المسرف ممن لا يقاوم جسمه فيؤذيه السرف ولكن من كان قوي الجسم لا يبالي مهما أسر.

وكم من إنسان لم يعرف التدخين مات بالسرطان.

وكم من إنسان لم يشرب كأس خمر فمات بتشمع في الكبد، وفي المقابل: يشرب الإنسان خزاناً من الخمر ويبقى سليماً.

ويدخن مائة سيجارة في اليوم ولا يصيبه ضرر.

الناس كالأشجار منهم صلب كالأرز ومنهم هش كالصفصاف ومتسلق كزهر الباشا... ويا ليته كان زهراً ولم يكن حطاماً متسلقاً.

المحتوى

شظايا من عمري/ تقديم شاهر أحمد نصر.....5
تقديم: عبد المعين الملوحي 9
الإهداء 11
لماذا ولدت... ولماذا أعيش... 13
الناس ليسوا غيلاناً 31
البرغوث 33
في دار المعلمين العليا.....36
في القاهرة.....45
في جامعة القاهرة.....52
في فلسطين.....96
العودة إلى سورية.....99
في حماة.....108
في التفتيش.....121
معركة اللغة العربية.....148
وزارة الثقافة.....158
في القصر الجمهوري 195
العمرة 198
الرقابة.....213

معين بسيسو يعاتب الكتاب والشعراء 221
زقاق الأربعين في حمص.... 227
سكرة صديق 232
اعتقالي واعتقال الشيخ دهمان 235
المرأة العربية ما تزال رقيقة.....240
خطيئة الرجل... وخطيئة المرأة! 242
نماذج من النفاق 248
الناس كالأشجار 254

إصدارات سلسلة

كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة - فؤاد الشايب - د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالـد محـي الدين البرادعي	2007
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشـعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصـــيدة الدمشـــقية وقصـــائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غـادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبـة فمـر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكـان وسـكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبـرا ابـراهيم جبـرا- عـرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
30	محمـود درويـش - مختـارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمـال أخـرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2009
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسـئلة الثقافـة فـي القـدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان فـي القصـة السـورية (حضور المكان)-علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غبور	2010
39	مختارات قصصية رفصـة ليلـة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غبور	2010
40	شفيق الكمـالي ـــ مختـارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبيـر سـلطان قدوري	فاديا غبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010
42	الظل الثالـث وقصـص أخـرى مختارات قصصـية - د. خليفـة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غبور	2010

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	انطــوان تشــيخوف دراســات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابــراهيم الجرادي -عبـد العزيز المقالح	د. ابــراهيم الجرادي -عبـد العزيز المقالح	2010
45	عبد الله البردوني قصائد مختـارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابــراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسـعينيات والأنمـاط الشـعرية السائدة)	د. ابــراهيم الجرادي	د. ابــراهيم الجرادي	2011
47	مختارات من أدب الخيال العلمـي العربي - رقم 004 بأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011
48	الله والغريب مختـارات شـعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثائرزين الدين	2011
49	ماياكوفسكي غيمة في سروال	مالك صقور	د. ابــراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليـاس : أمـل يستنسخ أوصافه	د. ابــراهيم الجرادي	د. ابــراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفراتي مـأخوذا بـالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابــراهيم الجرادي	د. ابــراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علـي جعفـر العلاق	د. ابــراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جـان جـاك روسـو المصـلح الاجتمـاعي - محمـد عطيـة الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حـي بـن يقظـان لابـن طفيـل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
58	بدوي الجبـل (محمـد سـليمان الأحمــد) عــام 1968 مدحــة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صفور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صفور	مالك صفور	2012
61	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	مالك صفور	مالك صفور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتـدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صفور	مالك صفور	2012
64	الأعاصـير - الشـاعر القـروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012
65	عبـد اللطيـف عقـل دراسـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صفور	مالك صفور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صفور	مالك صفور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صفور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
71	طبـائع الاسـتبداد ومصـارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صفور	2013

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
75	الفقه والتصوف والمسائل الشرعية في الخلافة	أ. محمد رأتب الحلاق	مالك صفور	2013
76	ّصالح العلي ثائراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
79	الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صفور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صفور	رضوان فضملي	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صفور	رضوان فضملي	2015
97	الإسلام بين العلم والمدنية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صفور	مالك صفور	2015